الأخــــــــلاق

(من الأربعون حديثاً)



سلسلة المعارف الإسلامية





الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org



مركز نون
للتأليف والترجمة

الأخلاق من

(الأربعون حديثاً)

جمعية المعارف الاسلامية الثقافية

بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام

هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ ـ ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

الكتاب: الأخلاق من الأربعون حديثا

إعداد: مركز نون للتأليف والترجمة

نشر: جمعية المعارف الإسلامية

الطبعة الثانية: كانون الثاني 2007 - 1426 هـ

الأخــــلاق
من
(الأربعون حديثاً)



الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على النبي الأكرم محمد المصطفى و آله الطيبين الطاهرين.

إن هذا الكتاب الذي بين يديك هو دروس أخلاقية أخذت من كتاب «**الأربعون حديثاً**» للإمام الخميني ﷺ، هذه الأخلاق التي انطلقت من قلب المجتمع لتحدث فيه انقلاباً على المستوى الفردي والاجتماعي العام.

لم تكن أخلاقاً فردية في كهف مغلق معرِضة عن التكاليف الإجتماعية، ولا حالة فردية خاصة دفنت في سر صاحبها وغادرت معه إلى ذاك العالم الآخر، بل كانت شعاع نور ينطلق في وجدان الفرد ليتحول حالة اجتماعية تجعل المجتمع كله يردد تسبيح الله وتقديسه ليظهر بالبُردة التي أرادها الله تعالى، وأرسل إليها الأنبياء والرسل لا سيما خاتمهم الأكرم صلوات الله عليه وآله الذي رسم هدف بعثته المباركة بقوله «**إنما بعثت بمكارم الأخلاق**».

لماذا هذا الكتاب ؟

قد يتردد هذا السؤال في وجدان عشاق الإمام الخميني ﷺ: أليس الأفضل أن نبقى مع كتاب «**الأربعون حديثاً**»؟ ولماذا نتصرف فيه ولا نتركه لندرسه كما خطته أنامل الإمام ﷺ؟

نحن ايضاً معهم نعشق أن نطالع كتاب الامام ﷺ نفسه بكل ما فيه، حتى النقطة والفاصلة، بل يا ليتنا نملك النسخة التي خطتها أنامله الشريفة!

ولكن هذا لم يمنعنا من طباعة هذا الكتاب الذي بين يديك، لأن كتاب «**الأربعون حديثاً**» هو كتاب ـ كما يظهر من اسمه ـ اهتم بشرح اربعين رواية

منتخبة قام الإمام الخميني ﷺ بانتقائها وشرحها. فالغرض هو شرح أحاديث بما تتضمن وهذا يلزم منه عدة أمور:

1 ـ لم يقتصر كتاب «**الأربعون حديثاً**» على الأخلاق، فحسب بل فيه العقائد والمفاهيم وغيرها من الأمور... وهذا سيسبب مشكلة للطالب الذي يدرس الأخلاق وللاستاذ كذلك. حيث سيضطر إلى اقتطاف الأخلاقيات والإعراض عن غيرها.

2 ـ لم يلحظ الإمام ﷺ ترتيب المطالب الأخلاقية بشكل تدريجي كما تتطلبه الكتب التدريسية، إذ لم يكن هدفه أن يكون الكتاب للتدريس، فقد تجد حديثاً حول تفصيلات أخلاقية يسبق حديثاً حول كلياتها الأساسية، وهذا سيجبر الاستاذ ـ ومعه الطالب ـ على التقديم والتأخير في الدروس مما سيزيد الطالب إرباكاً.

3 ـ في كثير من الحالات كان الإمام ﷺ يطنب في الكلام من بعض الجهات بشكل مناسب لغرضه ﷺ من كتابته ويناسب المطالعة أيضاً، ولكنه لا يناسب المتن الدرسي بالهيئة المطلوبة فيه.

هذا بالإضافة إلى أمور أخرى قد تلحظ باعتبار أن هذا الكتاب لم يكتب كمتن تدريسي.

ما هي مميزات هذا الكتاب ؟

إن هذا الكتاب الموجود بين يديك أراد أن يقدم كلام الإمام الخميني ﷺ في كتابه «**الأربعون حديثاً**» بشكل متن تدريسي يمكن للطالب أن يتناوله دون إرباك، ويسهّل مهمة الأستاذ، ومن هنا يمتاز الكتاب بما يلي:

1 ـ إن هذا الكتاب ينقل كلمات الإمام الخميني ﷺ في كتاب «**الأربعون حديثاً**»، وبالتالي فهو ليس شيئاً جديداً مغايراً له، وبعبارة أخرى هو ليس ترك وهجر لكتاب «**الأربعون حديثاً**» بل على العكس هو تقديم وتفعيل لهذا الكتاب بشكل يتناسب مع التدريس.

2 ـ تم عرض الأمور الأخلاقية الواردة في «**الأربعون حديثاً**» دون غيرها وبالتالي رفع مشكلة تعدد العلوم الذي كان يفرض حذفاً وتقطيعاً في الكتاب.

3 ـ تم عرض الأفكار بشكل تدريجي يبدأ بالكليات الأخلاقية ثم بما يصطلح عليه بمرحلة التخلية ثم التحلية.

4 ـ تم ربط الأفكار وعرضها بشكل سلس يسهل على الطالب تناوله.

5 ـ رغم تبسيط أسلوب العرض فقد حافظنا في هذا الكتاب على مصطلحات الإمام معتمدين على شرح الأستاذ لها.

خطوة لا بد منها:

بعد الذي عرضناه، وجدنا أنه ووفاءً منا لنهج الإمام قدس سره من اللازم علينا أن نقوم بهذه الخطوة حتى تصبح الأخلاق التي عرضها الإمام قدس سره في كتابه بمتناول الطلاب بأسلوب بسيط وممنهج وسهل، وهو أقل أمر يمكن أن يقدمه من يحمل في قلبه هم فكر الإمام الخميني قدس سره وإيصاله لشباب المجتمع من إخوة وأخوات.

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل عملنا هذا ويفيد به كل عاشق لنهج الإمام الخميني قدس سره.

والحمد لله رب العالمين



القسم الأول

مسائل أخلاقية عامة

الدرس الأول

الأخـــــلاق

عن رسول الله ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[1].

أهمية الأخلاق:

أبدت الأخبار الشريفة اهتماماً بالغاً بمكارم الأخلاق أكثر من أي شيء آخر باستثناء المعارف الإلهية. ويستفاد من الحديث السابق أن الغاية من بعث الأنبياء عليهم السلام، سيما خاتم الأنبياء ﷺ، هو إتمام مكارم الأخلاق.

فأهمية الفضائل الخلقية أكبر من قدرتنا على شرحها وبسط الحديث فيها، ولكن نكتفي بالإشارة إلى أن أساس الحياة الأبدية الأخروية، ورأس مال العيش في تلك النشأة، الخلق الفاضل والاتصاف بمكارم الأخلاق، وإن الجنة الممنوحة للإنسان من جراء خلقه الكريم المسماة بجنة الصفات أفضل بكثير من جنة الأعمال الجسمانية، فيها ما طاب ولذ بشكل أفضل وأحسن من النعم المادية الجسمانية، كما وأن فيها ظلمات وأهوال نتيجة الأخلاق السيئة للإنسان أسوأ من أي عذاب أليم.

ولنذكر بعض الأحاديث الشريفة في هذا المضمار:

ـ **حسن الخلق واحدة من مكارم الأخلاق:** عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إن الله خصّ رسوله ﷺ بمكارم الأخلاق، فامتحنوا أنفسكم، فإن كانت فيكم فاحمدوا الله وارغبوا إليه في الزيادة منها. فذكرها عشرةً: اليقين والقناعة والصبر والشكر والحلم وحسن الخلق والسخاء والغيرة والشجاعة والمروة»[2].

(1) تفسير مجمع البيان، المجلد 10، صفحة 333.

(2) من لا يحضره الفقيه، المجلد الثالث، رقم الحديث 4901.

ـ **محبة الله:** وعنه عليه السلام:

«عليكم بمكارم الأخلاق فإن الله عز وجل يحبها وإياكم ومذام الأفعال فإن الله يبغضها ـ إلى أن قال ـ وعليكم بحسن الخلق فإنه يبلغ بصاحبه درجة الصائم القائم»[1].

ـ **كمال الإيمان:** عن الإمام الباقر عليه السلام:

«إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»[2].

ـ **أثره في قبول التوبة:** عن رسول الله صلى الله عليه وآله:

«أبى الله عز وجل لصاحب الخلق السيئ بالتوبة، قيل: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: لأنه إذا تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم منه»[3].

ـ **أثره في الدنيا:** عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام:

«البر وحسن الخلق يعمران الديار ويزيدان في الأعمار»[4].

ـ **أثره في الآخرة:** عن النبي صلى الله عليه وآله:

«أكثر ما تلج به أمتي الجنة تقوى الله وحسن الخلق»[5].

ما هي الأخلاق؟

الخلق هو عبارة عن حالة نفسية، تدفع الإنسان نحو العمل من دون تروي وتفكر. فمثلاً إن الذي يتمتع بالسخاء، يدفعه خلقه هذا إلى الجود والإنفاق من دون حاجة إلى تنظيم مقدمات وترتيب مرجحات. وكأن هذا الخلق غدا من الأمور الطبيعية للإنسان مثل النظر والسمع. وكذلك النفس العفيفة التي أصبحت العفة خلقاً لها وجزءاً طبيعياً لها.

(1) وسائل الشيعة، المجلد 11، الباب 6، من أبواب جهاد النفس وما يناسبه، حديث 8.
(2) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب حسن الخلق، حديث 2.
(3) المصدر نفسه، حديث 3.
(4) المصدر نفسه، حديث 12.
(5) المصدر نفسه، حديث 6.

فإذا بلغ الخلق مستوى الأفعال الطبيعية في الإنسان، وغدا من قبيل القوى والوسائل، وظهرت سلطنة الحق وقهره، صار زواله صعباً ونادراً.

وما دامت النفس لم تبلغ هذا المستوى من التجذر الخلقي بواسطة التفكر والتدبر والترويض، لم يكن لها أخلاق وكمال، ويُخشى أن تغلب عليها العادات والخلق السيئ.

نشير إلى إن علماء الأخلاق أرجعوا كافة الفضائل النفسية إلى أمور أربعة هي:

1 ـ **الحكمة**: حيث اعتبروا الحكمة فضيلة للنفس العاقلة التي تميّز الإنسان عن غيره.

2 ـ **الشجاعة**: وهي من فضائل النفس الغضبية.

3 ـ **العفة**: وهي من فضائل النفس الشهوية.

4 ـ **العدالة**: وهي ترعى الفضائل الثلاثة.

فجميع الفضائل الأخلاقية تندرج تحت هذه الأمور الأربعة، وترجع إليها.

مصدر إلهام الخُلق:

هناك عدة أمور توحي للإنسان بهذه الحالات والخلق النفسية، منها:

ما ذكره علماء الأخلاق من أن هذه الخلق النفسية قد تكون في طبيعة الإنسان وفطرته، ومرتبطة بمزاج الإنسان من دون فرق بين ما هو خير وسعادة أو شر وشقاء. ونحن نرى بعض الناس منذ نعومة أظافرهم يرغبون في الخير، وبعضهم ينزع نحو الشر. وأن البعض يُثار بأدنى شيء، ويستوحش من عمل بسيط، ويخاف من أقل سبب، وبعض يكون على عكس ذلك.

وبعض هذه الخلق النفسانية قد تحصل من خلال العِشرة والتأثر بالمحيط، أو من خلال العادات التي يكتسبها الإنسان بشكل أو بآخر.

وقد تحصل نتيجة التفكر والتروي حتى يبلغ مستوى الحالة المتأصّلة في نفسه.

إمكانية تغيير الأخلاق:

عندما نقول أن الخلق النفسية طبيعية وفطرية، لا نقصد أنها ذاتية وغير خاضعة للتغيير. بل إن جميع المَلَكات والخلق النفسية قابلة للتبدل والتحول، ما دامت النفس تعيش في هذا العالم، عالم التغير والتبدل، وتخضع للزمان والتجدد، وتملك القابلية والاستعداد. بل يستطيع الإنسان أن يغير خلقه النفسي ويحوله إلى أضداده.

ويدلنا على ذلك ـ بالإضافة إلى البراهين العقلية والتجارب المحسوسة ـ دعوة الأنبياء والشرائع الحقة الناس للتخلق بالصفات الحميدة، والابتعاد عما يقابلها من الخلق السيئ، فلو لم يكن ممكناً لما كان هناك معنى لهذه الدعوة.

يستطيع الإنسان ما دام حياً أن ينقذ نفسه من هذه الظلمات ويبلغ بها عالم الأنوار. نعم هو قادر على بلوغ ذلك، لكن لا مع هذه البرودة والخمود والفتور والإهمال الذي أصابنا، حيث نرى جميعاً أننا منذ أيام الطفولة ننمو على الخلق الذميم والسلوك المنحرف، الذي اقترفناه من جراء هذه الحالات السيئة من العِشرة اللامسؤولة، والاختلاط غير اللائق، وبدل إزالتها نحافظ عليها، بل نضيف إليها في كل يوم جريرة أخرى، وكأننا لا نعتقد بوجود عالم آخر ونشأة باقية أخرى.

إن الأنبياء قد وضعوا بين أيدينا طرق السعادة، ثم قام العلماء والحكماء بتفسير أحاديثهم لنا، ولكننا امتنعنا عن الاستيعاب، فنحن المقصرون كما ورد في بعض الروايات عن رسول الله ﷺ:

«فإن لم تفعل فلا تلومن إلا نفسك».

أسئلة الدرس

1 ـ ما هي الأخلاق، واذكر مثالاً توضيحياً.

2 ـ اذكر خمسة من آثار مكارم الأخلاق.

3 ـ ما هو دور العدالة ضمن أصول الأخلاق الباقية؟ أوضح ذلك.

4 ـ ما الدليل على إمكانية تغيير الخلق.

5 ـ الخلق النفسية، هل هي مستمدة من الفطرة أم هي اكتسابية؟

جهاد النفس ـ منزلة المُلك

عن أبي عبد الله الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله بعث سرية، فلما رجعوا قال:

«مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، فقيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس».

الإنسان، هذا المخلوق العجيب الذي صنعه الله تعالى بيده وحسده إبليس لما أولاه الله تعالى من نعمه، يبهر العقول بما لديه من صفات وخصائص وإمكانات جعلها الله تعالى ليتحمل الأمانة الإلهية ويتمكن من الوصول إلى الأهداف التي خلق لأجلها.

تقسيم الإنسان إلى عالمي الملك والملكوت:

وهذا الإنسان له نشأتان وعالمان:

أ ـ نشأة ظاهرية ملكية دنيوية هي بدنه.

ب نشأة غيبية باطنية ملكوتية تكون من عالم آخر وهي الروح التي هي من عالم الغيب والملكوت ليست أمراً جامداً وخامداً في هذه الدنيا، فلها مراتب ودرجات ومقامات، قد ترتقي النفس فيها حتى تصبح طاهرة نقية خالصة لله تعالى سعيدة تحشر مع الأنبياء والأولياء والصالحين، وقد تنحدر حتى تصل إلى الجهل والظلام والشقاء فتحشر في زمرة الشياطين. فالإنسان هو ساحة صراع ونزاع مستمر بين معسكرين يريد أحدهما الانحطاط بالنفس إلى الظلام السفلي ويريد الآخر رفعها إلى الأنوار العلوية والسعادة الأبدية.

وفي هذا الصراع يظهر دور النفس التي عليها أن تأخذ زمام المبادرة في هذه الساحة الدقيقة، لتحقق الجهاد الأكبر وتنتصر... فكيف يمكنها أن تقوم بهذا الدور؟

حتى يحصل التوفيق في جهاد النفس لا بد من التعرف على أمرين أساسيين:

1 ـ نفس الإنسان بما عندها من عالمي الملك والملكوت وأوجه سعادتها وتعاستها.

2 ـ كيفية مجاهدة هذه النفس.

مقام الملك:

تدور أعمال الإنسان في مقام المُلك والظاهر على الأمور المادية السبعة وهي «الأذن والعين واللسان والبطن والفرج واليد والرجل».

وهذه الأمور السبعة تتجاذبها جنود الرحمان وزمر الشيطان، من خلال قوى الوهم من جهة والعقل والشرع من جهة أخرى، فإن غلب الوهم تسلط الشيطان وجنوده على هذه المرتبة وصارت ظلمانية، وإن غلب العقل والشرع تسلطت جنود الرحمان وهجرتها جنود الشيطان وصارت نورانية. وعلى النفس أن تجاهد حتى تطرد جنود الشيطان وتجعل هذا المقام بأبعاده السبعة مؤتمرة بأمر الخالق تعالى.

كيف يكون جهاد النفس في هذه المرتبة؟

إن جهاد النفس في هذه المرتبة له مراحله التي يمر بها:

المرحلة الأولى ـ التفكر:

إن أول شرط من شروط مجاهدة النفس والسير باتجاه الحق تعالى هو التفكر.والتفكر هو أن يترك الإنسان شيئاً من وقته ليجلس مع نفسه ويخاطبها خطاباً وجدانياً، وينبهها إلى المولى الكريم الذي خلقه في هذه الدنيا ووفر له كل أسباب الراحة ووهبه جسماً صحيحاً وقوى سليمة لها إمكانات ومنافع وآثار تحيّر العقول وتبهر الأنظار، هذا الإله الذي رعاه وهيأ له ووسع عليه وأعطاه وأنعم عليه وشمله بعطفه ورحمته وأرسل له الأنبياء وأنزل إليه الكتب والرسالات وأرشده ودعاه إلى الهدى وعرفه طريق السعادة... هذا المولى ماذا يستحق منا؟

وكيف يكون تعاطينا مع هذه النعم؟ هل أن وجود جميع هذه النعم هو فقط لإشباع الشهوات والانغماس في حياة حيوانية لا يتميز فيها الإنسان عن الحيوانات؟! أم أن هناك هدفاً وغاية أخرى؟.

هل أن الأنبياء الكرام والأولياء العظام والحكماء الكبار وعلماء كل أمة، كانوا أعداءً للإنسانية عندما حذروا الناس من الانغماس في الشهوات الحيوانية والغرق في هذه الدنيا البالية؟ هل أنهم كانوا لا يعرفون هدف الإنسان وطريقه ومسيرته فضلوا كما ضللنا نحن المساكين المنغمسين في الشهوات؟!

لو وقف الإنسان مع نفسه وقفة صدق ولو للحظة واحدة لعرف أن الهدف من هذه النعم هو شيء آخر، وأن الهدف من هذا الخلق أسمى وأعظم وأن هذه الحياة الحيوانية ليست هي الغاية بحد ذاتها، وأن على الإنسان العاقل أن يفكر بنفسه وأن يترحم على حاله ويشفق على نفسه المسكينة ويخاطبها قائلاً: أيتها النفس الشقية التي قضيت سني عمرك الطويلة في الشهوات، ولم يكن نصيبك سوى الحسرة والندامة، ابحثي عن الرحمة واستحي من مالك الملك واتجهي نحو الهدف الأساسي وسيري نحو حياة الخلد والسعادة السرمدية، ولا تخسري تلك السعادة بسبب شهوات أيام قليلة فانية زائفة، تأملي في أحوال أهل الدنيا من السابقين واللاحقين، لم يحصلوا على الراحة ولا استقرت أمورهم على ما يحبون، كم أن متاعبهم وآلامهم أكبر وأعظم من راحتهم وهنائهم!

هذا الصديق الذي يأتي ليدعوك إلى الشهوات، ويقول: يجب تلبية الحياة المادية وعدم تفويتها، هذا الصديق الذي يأتي بصورة إنسان ولكنه جند من جنود الشيطان وأعوانه، إذا تأملت في حاله واستنطقته، هل ستجده راضٍ عن ظروفه مسروراً بحياته، أم أنه مبتلٍ ويريد أن يبلي مسكيناً آخر؟!

إذن فأدعو ربك بعجزٍ وتضرع واسأله أن يعينك على أداء واجباتك والقيام بوظائفك، فيشكل هذا التوفيق أساس العلاقة بينك وبين الله سبحانه وتعالى، ليأخذ بيدك بعد ذلك ويرفعك إلى منزلة أرفع من منازل المجاهدة.

المرحلة الثانية ـ العزم:

بعد التفكر والخطاب الوجداني الذي يقوم به الإنسان تأتي مرحلة العزم، والمقصود من العزم أن يوطن الإنسان نفسه على ترك المعاصي وأداء الواجبات، ويتخذ قراراً حازماً بذلك، وبالإضافة إليه يتدارك ما فاته في أيام حياته، فيقضي ما ترك ويرد حقوق الناس ويدفع المظالم وينهي كل أثر للمعاصي التي ارتكبها ويجبر كل نقص في الواجبات التي تخلف عنها وتركها، فيصبح ظاهره ظاهر الإنسان الشرعي الذي ينظم سلوكه وفق ما يتطلبه الشرع.

ملاحظة وتنبيه: أول خطوة في السلوك في المعارف الإلهية هي الالتزام بأحكام الشريعة، ولا يمكن للإنسان أن يحصل على الأخلاق الحسنة إلا من خلال ذلك، ولا يتصور أحد أنه يمكن أن يتجلى في قلبه نور المعرفة وتتكشف له الأنوار الإلهية من خلال الالتزام بطريق آخر وترك هذا الطريق، وبعد ظهور المعارف والأنوار الإلهية في القلب لا بد من الاستمرار في التأدب بالآداب الشرعية الظاهرية أيضاً.

كيف نحصل على العزم؟

إن التجرؤ على المعاصي يفقد الإنسان تدريجياً العزم، فيفقد هذا الجوهر الثمين، وكان يقال: «إن أكثر ما يسبب فقد الإنسان العزم والإرادة هو الاستماع للغناء».

عليك إذن أن تهجر المعاصي وتهاجر إلى الحق تعالى، وتحافظ على الظاهر الإنساني الشرعي واسلك سبيل الأنبياء والصالحين، واطلب من الله تعالى في الخلوات أن يوفقك لذلك ويعصمك من المزالق فيمكن للإنسان أن يسقط في لحظة واحدة فيعجز عن إنقاذ نفسه ويكون الهلاك!واستشفع برسول الله ﷺ، وأهل بيته عليهم السلام ليتم التوفيق.

المرحلة الثالثة ـ المشارطة والمراقبة والمحاسبة:

وهي من الأمور الضرورية للمجاهد، وهي أمور ثلاث:

الأول ـ المشارطة: وتكون في أول اليوم حيث يخاطب الإنسان نفسه ويشارطها على أن لا يرتكب اليوم أي عمل يخالف أوامر الله تعالى، ويتخذ قراراً بذلك ويعزم عليه.

وترك ما يخالف أوامر الله لمدة يوم واحد هو أمر يسير وسهل للغاية، ويمكن للإنسان بكل سهولة أن يلتزم به، فاعزم وشارط وجرب وانظر كيف أن الأمر سهل يسير، وقد يوسوس لك الشيطان ليصعب عليك الأمور ويصور الأمر وكأنه صعب عسير، ولكنه وهم عليك أن تخرجه من قلبك،جرب ليوم واحد تعرف سهولته.

الثاني ـ المراقبة: بعد المشارطة يأتي دور المراقبة، فيبقى طوال اليوم متنبهاً لتطبيق المشارطة، فتعتبر نفسك ملزماً بالعمل وفق ما شارطت، فإذا حدثتك نفسك بارتكاب المعاصي فاعلم أنه وسوسة الشيطان الذي يحاول استدراجك للمعصية فالعنه واستعذ بالله من شره، وتذكر شرطك لهذا اليوم وخاطب نفسك: «إني اشترطت على نفسي أن لا أقوم في هذا اليوم ـ وهو يوم واحد ـ بأي عمل يخالف أمر الله تعالى، وهو ولي نعمتي طوال عمري، فقد أنعم علي بالصحة والسلامة والأمن وتلطف بألطاف أخرى، ولو أني بقيت في خدمته إلى الأبد لما أديت حق واحدة منها، أفلا أفي بشرط بسيط كهذا؟!

الثالث ـ المحاسبة: إذا جاء الليل فقد حان وقت المحاسبة، فعليك أن تحاسب نفسك لترى هل أديت ما اشترطت على نفسك مع الله ولم تخن ولي نعمتك في هذا العهد البسيط؟ إذا كنت قد وفيت حقاً فاشكر الله على هذا التوفيق، وسيكون عمل الغد أيسر وأسهل عليك من سابقه فواظب عليه فترة حتى يتحول إلى عادة مطبوعة في نفسك تقوم بها بشكل تلقائي وبكل سهولة.وستحس حينها باللذة والأنس بطاعة الله تعالى وترك معاصيه رغم أن هذا العالم ليس عالم الجزاء...

وإذا وجدت ـ لا سمح الله ـ في أثناء المحاسبة تهاوناً و فتوراً تجاه ما اشترطت على نفسك، فاستغفر الله واطلب العفو منه، واعزم على الوفاء بكل شجاعة بالمشارطة غداً، وثابر على ذلك واصبر حتى يفتح الله تعالى أمامك أبواب التوفيق والسعادة ويوصلك إلى صراط الإنسانية المستقيم.

أسئلة الدرس

1 ـ ما هما العالمان الذي يدور فيهما جهاد النفس؟ وما الفرق بينهما؟
2 ـ ما هي القوى السبعة ومن خلال أي شيء تتجاذبها جنود الرحمان وزُمَر الشيطان؟
3 ـ ما الهدف من النعم الإلهية على الإنسان في هذا العالم؟
4 ـ ما هي أول خطوة لسلوك الإنسان؟
5 ـ ما هو الأمر الذي يتسبب بفقدان العزم والإرادة أكثر من غيره؟

جهاد النفس ـ منزلة الملكوت

إن الكلام في هذا القسم أهم من القسم السابق وجنود النفس فيه أكثر، والصراع والنزاع فيها بين الجنود الرحمانية والشيطانية أعظم، والغلبة والانتصار فيها أشد وأهم، بل إن الانتصار في ذاك المقام يتبع الانتصار في هذا المقام ومرتبط به، ويمكن اعتبار هذا المقام منبع جميع السعادات والتعاسات، والدرجات والدركات.

ويجب الالتفات إلى أن هزيمة الجنود الرحمانية في هذا المقام ربما يسفر عن الهلاك الدائم للإنسان بشكل يستحيل معه الرجوع والتصحيح، وينظر إليه أرحم الراحمين بعين الغضب والسخط، ويحرم شفاعة الشافعين، بل يصبح شفعاؤه خصماؤه! وويل لمن كان شفيعه خصمه!.

إن الجنة وجهنم التي ورد وصفها في القرآن الكريم، المقصود منها غالباً جزاء الأعمال فالنار هي نار الأعمال والجنة هي جنتها، ولكن الجزاء لا يختص بالأعمال فقط بل هو يشمل الأخلاق التي يتخلق بها الإنسان أيضاً، وهذه لها جنتها ونارها الخاصة بها وهي أهم وأكبر من السابقة! وهناك إشارات خفية في النصوص لهذه الجنان والنيران، بالإضافة إلى ذلك هناك جنة اللقاء ونار الفراق التي ورد الإشارة إليها في النصوص أيضاً.

وما قالوه بشأن جنة الأخلاق الحسنة وجهنم الأخلاق الرذيلة، أمور عظيمة ومصائب جمة لا يطيق الإنسان حتى سماعها!

القوى الباطنية ومظهر الإنسان في الآخرة

إن قوى باطن النفس ثلاثة وهي: «الوهمية والغضبية والشهوانية »، ولكل واحدة من هذه القوى الثلاث منافع كثيرة من أجل حفظ النوع والشخص وإعمار

الدنيا والآخرة، فهذه القوى الثلاث هي منبع جميع الملكات الحسنة، ولكن يجب التنبه إلى أنها منبع جميع الملكات السيئة أيضاً. وبناء على هذه القوى الثلاث تتحدد شخصية الإنسان وهويته الباطنية.

إن للإنسان صورة ملكية دنيوية ظاهرية خلقه الله تعالى عليها، فجعله على أحسن صورة، جيدة، جميلة المنظر تبارك الله أحسن الخالقين، وبالإضافة إلى هذه الصورة الظاهرية هناك صورة أخرى للإنسان هي الصورة الملكوتية الغيبية الباطنية التي تأخذ هيئتها بحسب الأخلاق والملكات التي يتلبس بها الإنسان، وهذه الصورة الباطنية هي التي يظهر بها الإنسان بعد الموت ـ سواء في البرزخ أو القيامة ـ فإذا كانت خلقة الإنسان في الباطن والملكة والسريرة إنسانية، تكون صورته حينها إنسانية أيضاً، وأما إذا كانت غير إنسانية فستكون صورته غير إنسانية أيضاً. ولكل واحدة من هذه القوى الباطنية الثلاث صورة خاصة إذا لم يتحكم بها الإنسان، فإذا غلبت على باطنه ملكة الشهوة صارت صورته صورة بهيمية، وإذا غلبت ملكة الغضب صار بصورة الحيوان المفترس، وإذا غلب الوهم صارت صورته صورة أحد الشياطين حسب ما يتناسب وتلك الصورة. ومن الممكن أحياناً أن تتركب الصورة الباطنية من ملكتين أو عدة ملكات، فتتشكل له صورة غريبة مخيفة ليس لها مثيل في هذا العالم. وقد روي عن رسول الله ﷺ أن بعض الناس يحشرون يوم القيامة على صورة تحسن عندها صورة القردة.

ويمكن أن يكون له أكثر من صورة وهيئة سيئة، فليس بالضرورة في ذلك العالم أن يكون للإنسان صورة واحدة كما كان في هذا العالم بل يمكن أن تتعدد صوره هناك.

قد يتساءل البعض هنا: أن الإنسان قد تتغير أخلاقه في حياته فيمكن أن يصبح الصالح طالحاً والطالح صالحاً فأي صورة سيظهر بها في الآخرة منهما؟

والجواب عن ذلك أن صورته التي سيظهر بها في الآخرة هي الصورة التي

تتناسب مع صفاته لحظة وفاته وتركه لهذه الدنيا وانتقاله لذلك العالم، فكما تكون صورته الباطنية في تلك اللحظة ينتقل إلى البرزخ بتلك الصورة، نسأل الله تعالى حسن العاقبة.

المطلوب هو السيطرة لا الإفناء

ما دام الوهم والغضب والشهوة، يمكن أن توصل الإنسان إلى الغضب الإلهي وتظهره في الآخرة بمظهر البهيمة والعياذ بالله، فهل المطلوب القضاء على الوهم والغضب والشهوة؟

ليس المطلوب ذلك أبداً، لأن هذه القوى الثلاث يمكن أن تكون من الجنود الرحمانية وتؤدي إلى سعادة الإنسان وتوفيقه إذا سلمها للعقل السليم وجعلها ضمن إرشادات الأنبياء العظام، وليس خافياً على أحد أن الأنبياء العظام ﷺ لم يكبتوا الشهوة والغضب والوهم بصورة مطلقة، ولم يطلب ذلك داعية على الإطلاق، وإنما قالوا: يجب السيطرة عليها حتى تؤدي واجبها في ظل ميزان العقل وحكم الشرع.فالمطلوب هو السيطرة عليها والاستفادة منها دون إفساح المجال لها للتجاوز والإسراف والظلم.

فهذه القوى لو تركت وشأنها ستحاول أن تحصل على ما تريد ولو عن طريق الفساد والفوضى، فالنفس البهيمية المنغمسة في الشهوة الجامحة تريد أن تحقق هدفها ومقصودها ولو من خلال الزنا بالمحصنات في الكعبة ـ والعياذ بالله ـ، والنفس الغضوب تريد أن تنجز ما تريد حتى ولو استلزم ذلك قتل الأنبياء والأولياء، والنفس ذات الوهم الشيطاني تريد أن تؤدي عملها حتى لو استلزم ذلك الفساد في الأرض.

الأنبياء ﷺ إنما جاءوا بالشرائع وأنزلت عليهم الكتب السماوية من أجل الحيلولة دون الانفلات والإفراط في الطبائع، وإخضاع النفس الإنسانية وترويضها وتأديبها.

الخيال والسيطرة عليه

الخيال هو كالطائر الذي يطير يميناً ويساراً وينتقل من شجرة إلى أخرى، وهو قادر على دفع الإنسان نحو الشقاء والفساد، وهو وسيلة من وسائل الشيطان التي يتسلط من خلالها على الإنسان فيكبله بواسطة الخيال ويدفع به نحو الشقاء.

والإنسان المجاهد الذي نهض لتهذيب نفسه وإصلاحها عليه أن يمسك بهذا الطائر ويسيطر عليه ولا يسمح له بالطيران إلى أي موطن يريد، بل عليه أن يمنعه من التحليق في الخيالات الفاسدة والباطلة والمعاصي والشيطنة وأن يوجه خياله دائماً نحو الأمور الشريفة.

كيف يمكن السيطرة على الخيال؟

قد يظن الإنسان أن السيطرة على الخيال أمر صعب جداً لأن الخيال أشبه ما يكون بالزئبق الذي يفر من الإنسان كلما حاول أن يمسكه، ويأتي الشيطان ليهول على الإنسان ويعظم له الأمور ليشعر الإنسان بالعجز أمام الخيال فيستسلم ويسقط أمامه. والحقيقة أن السيطرة على الخيال أمر يسير مع المراقبة والحذر.

يمكن أن يصعب على الإنسان السيطرة على خياله دفعة واحدة، ولكن لا يصعب عليه السيطرة التدريجية، فيبدأ بالسيطرة على جزء من الخيال ويراقب نفسه ويتنبه جيداً، فمتى ما أحس خياله يتوجه نحو هذا الأمر يصرفه نحو أمور أخرى مباحة أو محببة إلى الله تعالى، فإذا حصلت على نتيجة فاشكر الله تعالى على هذه النعمة وهذا التوفيق وأكمل السيطرة على هذا الخيال بهذا الأسلوب التدريجي لعلك تهتدي إلى صراط الإنسانية المستقيم ويسهل عليك مهمة السلوك إليه سبحانه وتعالى، فالخيال هو من أهم المواقع الشيطانية التي يتترس بها إبليس وجنوده فإذا سقط هذا الدرع وهذا المتراس فتأمل خيراً.

معالجة المفاسد الأخلاقية

الوقاية من المفاسد الأخلاقية خير من العلاج وأسهل، ولكن إذا تلبست ـ لا سمح الله ـ بالأخلاق الفاسدة، فعليك أن تعاجل بالمعالجة ولا تسوّف لأن هذه الأخلاق الرذيلة تتأصل فيك وتتغلب عليك بشكل تدريجي، وعليك أن تتذكر أن العمر غير مضمون وأن المنيّة تأتي من غير استئذان فمن يضمن العمر إلى الغد حتى يؤجل الإصلاح إلى الغد، ولو أطال الله عمرك فسيصعب الإصلاح إن لم تبادر الآن، لأن من شب على شيء شاب عليه، فما دام في العمر بقية ومادامت همة الشباب موجودة ابحث عن العلاج وتلمس دواء هذه الأخلاق الرذيلة لتطفئ ثائرة الشهوة والغضب فتأخذها من يد الشيطان وأعوانه وتجعلها في ساحة الرحمان.

كيف تعالج نفسك؟

أفضل علاج لدفع هذه المفاسد الأخلاقية، هو أن تأخذ كل واحدة من الصفات القبيحة والميول الفاسدة التي تراها في نفسك، فتجمع همتك وتعزم على مخالفتها وعمل عكس ما ترجوه وتطلبه، وبالتدريج يحصل ترويض هذه النفس وكسر شوكة هذه الميول والسيطرة عليها.

ولا تنسى التوكل على الله تعالى وطلب التوفيق منه لإعانتك في هذا الجهاد، ولا شك في أن هذا الخلق القبيح سيزول بعد فترة وجيزة، ويفر الشيطان وجنوده من هذا الخندق وتحل محلهم الجنود الرحمانية.

أسئلة الدرس

1 ـ ما هي قوى الباطن الثلاثة وما فائدتها؟

2 ـ على أي هيئة تكون صورة الإنسان في البرزخ والآخرة، وما هو مصدر تشكل هذه الصورة؟

3 ـ أيهما أفضل: الوقاية من المفاسد الأخلاقية، أم الوقوع بها ثم التوبة والإصلاح؟

4 ـ ما هي أهم المواقع التي يتترس بها إبليس وجنوده في نفس الإنسان؟

5 ـ ما هو الهدف من إرسال الأنبياء وإنزال الشرائع؟

أقسام القلوب

عن الإمام أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام:

«إن القلوب أربعة: قلب فيه نفاق وإيمان، وقلب منكوس[1]، وقلب مطبوع[2]، وقلب أزهر[3] أجرد[4]. فقلت: ما الأزهر؟ قال: فيه كهيئة السراج، فأما المطبوع فقلب المنافق، وأما الأزهر فقلب المؤمن، إن أعطاه شكر وإن ابتلاه صبر، وأما المنكوس فقلب المشرك، ثم قرأ هذه الآية ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمّن يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾، فأما القلب الذي فيه إيمان ونفاق فهم قوم كانوا بالطائف فإن أدرك أحدهم أجله على نفاقه هلك وإن أدركه على إيمانه نجا».

الترغيب في إصلاح النفس

القلب بحسب الاصطلاح له معانٍ متعددة، وبيان حقيقة القلب والمعاني المختلفة غير مفيد بالنسبة لنا الآن بل قد يكون مضراً إذا صار الإنشداد إلى المصطلحات سبباً للغفلة عن القلب نهائياً والتأخر في إصلاحه، فالأولى صرف الكلام إلى ما هو هام وضروري والتعاطي مع القلب بمعناه الكلي الذي يتراءى من الروايات رغم غموض حقيقته.

إن العلوم بأسرها تكون للعمل، حتى المعارف الإلهية، حيث لها انعكاسات عملية أيضاً، وعلم أحوال القلوب وكيفية صحتها ومرضها وصلاحها وفسادها، من

---

(1) المنكوس: المقلوب، يقال نكست الشيء أي قلبته على رأسه.

(2) المطبوع: المختوم، والطبع بالسكون: الختم، وبالتحريك: الدنس والوسخ.

(3) الأزهر: الأبيض المستنير، ورجل أزهر أي أبيض مشرق الوجه، والمرأة: الزهراء.

(4) الأجرد: الذي ليس في بدنه شعر، كناية عن عدم تعلق قلبه بالدنيا أو عن خلوه من الغل والغش.

العلوم التي تعد مقدمة للعمل، وأداة لعلاج القلب وإصلاحه، وأما الإحاطة بهذه الأمور واستيعابها فلا يعتبر من الكمالات الإنسانية.

إذن لا بد للإنسان أن يركز انتباهه على إصلاح القلب، ويجعل مبتغاه إكماله، حتى ينال منتهى السعادة، ويصل إلى المراتب الروحانية العالية.

أقسام القلوب ومراتبها

إن للقلوب أقسام ومراتب كما هو واضح وكما ذكرت الروايةالسابقة عن الإمام الباقرعليه السلام، حيث قسمت القلوب إلى أربعة أقسام، ولكن ما هو منشأ هذه المراتب وسبب هذه الأقسام؟

ما السبب في اختلاف القلوب

يمكن إرجاع اختلاف القلوب إلى أمرين:

١ - **الفطرة**: إن الروايات تؤكد أن القلوب تولد على فطرة التوحيد، فالإيمان والتوحيد فطري في الإنسان، والقلب المؤمن بما له من أقسام وكمالات استلهم من هذه الفطرة المولودة مع الإنسان، وكذلك بالنسبة للشرك والنفاق، فيمكن أن يقال أنها نتيجة ظروف تربوية واجتماعية ترتبط بالفطرة أيضاً - بدون أن يصل الأمر إلى القول بالجبر المستحيل - وعليه يمكن أن يقال: إن السبب والمنشأ في اختلاف القلوب هو الفطرة الموجودة في الإنسان.

٢ - **تبلور القلب وحركتها المعنوية**: بمعنى أن السبب في اختلاف القلوب ليس الاستلهام والتأثر بالفطرة والسجية وإنما بسبب تحركها المعنوي بعد ذلك. وهذه الفرضية أكثر انسجاماً مع روايات الفطرة التي تعتبر التوحيد فطرة في الإنسان ولكنها تؤكد أن الشرك والنفاق طارئان وعرضيان.

وهذه الفرضية الثانية هي الأقرب والأصوب، والإنسان ما دام موجوداً في هذا العالم فهو قابل للتغير والانتقال من مرتبة إلى مرتبة، والارتقاء من مراتب النقص والشقاء والشرك والنفاق ليبلغ مراتب الكمالات والسعادة.

الشقي شقي في بطن أمه

كيف نفسر الرواية المعروفة «**الشقي شقي في بطن أمه**»، مع ما ذكرناه من كون القلوب قابلة للتغير والتبدل وهي تتبلور معنوياً من خلال حركتها المعنوية في الدنيا؟

الحقيقة أن هذا الحديث الشريف لا يدل على أن السعادة والشقاء ذاتيان للإنسان بل يدل على معنى آخر ينسجم مع الدليل والبرهان:

والظاهر من الرواية أن المقصود السعادة والشقاء الفعليان، ومن المعلوم أن السعادة التي تعد من الكمالات والفعليات لا تتوفر للنفوس الهيولائية على نحو الفعلية فعلاً، وإنما تكون على نحو الاستعداد والقابلية والأهلية والقوة، وعليه فالمقصود بالرواية نشأة أخرى للإنسان والتي تكون فيها سعادته وشقاؤه فعليين، ألا وهي وجوده في عالم الطبيعة المادية، ويكون المقصود من بطن الأم عالم الطبيعة الذي يعيش فيه الإنسان، كما عبرت بعض الروايات، فعن أمير المؤمنينعليه السلام:

«**الناس أبناء الدنيا ولا يلام الرجل على حب أمه**».

فعالم الطبيعة والمادة هذا هو أم لكل ما هو مادي ومشيمة لتربية ما هو من الطبيعة.

حصر أقسام القلوب في أربعة

قسم الحديث السابق القلوب إلى أقسامها الأربعة، وهناك من حاول بيان التقسيم بشكل منطقي بهذا الشكل:

إن القلوب إما أن تتحلى بالإيمان أو لا. وعلى الأول إما أن تتصف القلوب بالإيمان بكل ما أتى به رسول الله ﷺ، أو تتصف ببعض ما يعتبر في الإيمان دون بعض. فالأول قلب المؤمن، والثاني هو القلب المكنف بالإيمان والنفاق. وهو إما أن يعلن الإيمان ويظهره أو لا، فعلى الأول يكون القلب منافقاً وعلى الثاني مشركاً.

ولكن هذا التحليل لا ينسجم مع الحديث الشريف الذي يظهر منه أن القلب الواحد قد يؤمن في الحقيقة بكل ما جاء به النبي ﷺ وقد ينافق. ويمكننا أن نبين

انقسام القلوب إلى الأقسام الأربعة بشكل أفضل فنقول: إن القلب إما أن يؤمن بكل ما جاء به النبي ﷺ أو لا، وعلى الثاني إما يظهر إيمانه أو لا، وعلى الأول إما أن يستقر فيه الإيمان من دون تزلزل أو يؤمن حيناً ويتراجع حيناً آخر رغم إفصاحه عن الإيمان أيضاً، ويستفاد من ذيل هذا الحديث أن توبة من يتحول من الإيمان إلى الكفر والنفاق تكون مقبولة رغم نقضه للتوبة وتكرر مثل هذا التراجع والتحول.

قلب المؤمن أزهر

إن الإيمان بالله تعالى هو من الكمالات المطلقة وهو أصل الكمال وأصل النور الإلهي الذي يظهر ويتجلى في قلب الإنسان، وكل ما لم يكن من الإيمان وتوابعه فهو خارج عن نطاق الكمالات النفسية الإنسانية وملحق بظلمات النقص والأوهام. فيتبين إذن أن قلب المؤمن أزهر كما في الرواية، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام:

«تجد الرجل لا يخطأ بلام ولا واو، خطيباً مصقِعاً ولقلبه أشد ظلمة من الليل المظلم، وتجد الرجل لا يستطيع أن يعبّر عما في قلبه بلسانه وقلبه يزهر كما يزهر المصباح».

وهو مع ذلك يسلك الصراط المستقيم وينتهج في سيره الروحاني الجادة السوية والصراط المستقيم، وذلك من خلال:

أولاً: لم يخرج قلب المؤمن من الفطرة التي فطره الله تعالى عليها، بل سار على ضوء فطرة التوحيد التي هي التوجه والإنشداد إلى الكمال المطلق والجمال التام. فينطلق بهذا السير الروحاني من مرتبة الفطرة إلى منتهى الكمال المطلق ضمن صراط مستقيم ليس فيه أدنى اعوجاج وانحراف. وقد نقل عن رسول الله ﷺ أنه رسم على الأرض خطاً مستقيماً ثم رسم خطوطاً متقاطعة مع الخط المستقيم ثم قال:

«إن الخط المستقيم هو صراطي ومنهجي».

ثانياً: يستسلم الإنسان في المسير كلياً للإنسان الكامل ومقام الخاتمية، ويحافظ على صفاء قلبه من تصرف الشياطين والأنانية، ولما كان الإنسان الكامل مَظهراً لجميع الصفات والأسماء، ولم تطغى عنده صفة على أخرى، كما قال الشاعر في وصف أمير المؤمنين عليه السلام:

جمعت في صفاتك الأضداد فلهذا عزت لك الأنداد
زاهد حاكم حليم شجاع فاتك ناسك فقير جواد
شيم ما جمعن في بشر قط ولا حاز مثلهن العباد

فاحتوى على مقام الوسطية وتم سيره على الصراط المستقيم الطريق الوسط الذي هو الاسم الجامع، وأما الكائنات الأخرى فيكون كل واحد منها مظهراً لاسم من الأسماء متأثراً به، فإما تنزع نحو جانب اللطف والجمال، أو نحو جانب القهر والجلال.

وأما المؤمنون فلما كانوا تابعين في مسيرتهم للإنسان الكامل واضعين خطاهم في موضع أقدامه وسائرين على ضوء نور هدايته ومعرفته غير معتمدين على أنفسهم خطوة واحدة في سيرهم الروحاني إلى الله، استطاعوا أن يكونوا على الصراط المستقيم أيضاً وكان حشرهم مع الإنسان الكامل، ووصولهم تبعاً لوصول الإنسان الكامل، شرط محافظتهم على صفاء قلوبهم من تصرف الشياطين والإنية والأنانية بل واستسلامهم في المسير كلياً للإنسان الكامل ومقام الخاتمية.

أسئلة الدرس

1 ـ ما السبب في اختلاف القلوب؟ هل هو الفطرة أم مكتسبات القلوب وحركتها المعنوية في الدنيا

2 ـ كيف تفسر الرواية المشهورة «الشقي شقي في بطن أمه»، بشكل يتناسب مع قابلية التغير في الدنيا؟

3 ـ كيف نبين انقسام القلوب إلى أربعة أقسام فقط؟

4 ـ ما هما الأمران اللذان يشكلان منهج الصراط المستقيم؟

5 ـ ما المقصود من كلمة «مقام الوسطية»؟

الدرس الخامس

الخوف والرجاء

عن الإمام أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق عليه السلام:

«كان فيها (وصية لقمان) الأعاجيب، وكان أعجب ما كان فيها أن قال لابنه: خف الله عز وجل خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذبك، وارجُ الله رجاءً لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك. ثم قال: كان أبي يقول: إنه ليس من عبدٍ مؤمنٍ إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا ولو وزن هذا لم يزد على هذا».

نظرتا الإنسان المؤمن:

إن للمؤمن العارف بالحقائق نظرتين:

الأولى: نظرته إلى نفسه من حيث نقصانه وضعفه وافتقاره واحتياجه الأزلي والأبدي، وأنه لا يملك بذاته شيئاً على الإطلاق، بل إثبات النقص له هو قصور في التعبير لأن إثبات النقص يقتضي ثبوت الذات في مرتبة سابقة، وهذا غير دقيق لأنه فقير بذاته أيضاً، و ليس له اكتفاء من جهتها لنثبت لها شيئاً!

وهو من خلال هذه النظرة سيعلم بأن ليس له شيء من ذاته، فلا العبادات ولا الطاعات ولا العلوم ولا المعارف كانت منطلقة من ذاتياته! فلا يبقى مكان للعجب، بل سيقف مطأطئَ الرأس خجلاً وذلاً وخوفاً! فهذه العبادة ممن ولمن؟ إن كل جميل يعود إليه تعالى:

﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾.

الثانية: نظرته إلى كمال الله تعالى، وبسط رحمته، وسعة لطفه وعنايته. فهو يرى أن الله تعالى أنعم عليه بهذه النعم المتنوعة مبتدأة لا يسبقها سؤال، رغم عدم

علم الإنسان بقيمتها وعدم استعداده وتهيئه للاستفادة منها! وأن الله قد فتح أبواب لطفه وعفوه على العباد دون استحقاق منهم.

هذا الملك الذي لا تضره معصية من عصاه ولا تنقص من خزائنه شيئاً، ولا تنفعه طاعة من أطاعه ولا تزيد خزائنه شيئاً!

فإذا جثونا عند أعتاب رحمته وعنايته، لوجب أن نقول: اللهم إنك إذ ألبستنا لباس الوجود، ووهبتنا كل أسباب الحياة والرفاه بما يفوق إدراك المدركين، وأريتنا طرق الهداية، وأسبغت علينا من نعمك، إنما كان ذلك لمصلحتنا لننعم بأفضالك ونعمك. وها نحن قد وفدنا إلى دار كرامتك، وعلى أعتاب سلطنتك، مثقلين بذنوب الثقلين، مع أن ذنوب المذنبين لم تنقص من خزائن رحمتك، ولم تخلّ خطاياهم بمملكتك. فماذا أنت صانع بقبضة تراب لا تساوي شيئاً عند أعتاب عظمتك سوى أن تشملها برحمتك وعنايتك؟ أيمكن أن نأمل غير الرحمة من لطفك؟!

فعلى الإنسان أن يتردد بين هاتين النظرتين. فلا يغمض عينيه عما فيه من نقص وقصور في القيام بواجب العبودية، ولا هو ينسى سعة رحمة الحق جل جلاله وعنايته وشمولها.

مراتب الخوف وأسبابه:

للخوف مراتب ودرجات متعددة، منها:

1 ـ **العامة**: حيث أنهم يخافون من العذاب والألم والعقاب في الآخرة نتيجة ذنوبهم.

2 ـ **خوف الخاصة**: حيث أنهم يخافون من العتاب الإلهي لهم بسبب تقصيراتهم في جنب الله.

3 ـ **خوف أخص الخاصة**: حيث أنهم يخافون من طروء الحجب التي تحجب القلوب عن الله تعالى، فأشد ما يخافونه البعد والفراق.

وهناك عوامل تساعد على رفع غفلة الإنسان وحصول هذه المراتب عنده على اختلافها، منها:

ـ التفكر في شدة بأس الله تعالى وأنه شديد العقاب، وملاحظة دقة الطريق المستقيم، وأخطار الدنيا وما فيها ومتاعب البرزخ ومصاعبه، ووقفة يوم الحساب والميزان، وعذاب الآخرة!

ـ الاعتراف بالقصور عن عبادة الله تعالى حق عبادته، لأن العبادة هي الثناء على مقام ذات الله المقدسة، وثناء كل شخص لا يمكن إلا مع معرفة الشخص ومزاياه بشكل كامل، ويد العباد قاصرة عن عز جلال معرفته، فهم بالتالي غير قادرين على ثنائه حق الثناء، كما اعترف بذلك اشرف البشرية وأعرف الكائنات بمقام الربوبية:

«ما عبدناك حق عبادتك، وما عرفناك حق معرفتك».

ولذلك كان ﷺ يقول:

«أنت كما أثنيت على نفسك».

العبادة باب من أبواب الرحمة الإلهية:

ذكرنا أن العباد قاصرين عن الثناء على الله تعالى وعن عبادة ذاته المقدسة. ومن دون معرفة الحق سبحانه وعبوديته لا يمكن لأحد من عباده أن يبلغ المقامات الكمالية والمدارج الأخروية، كما هو ثابت في محله (وإن كان عامة الناس غافلين عن ذلك، ويحسبون المدارج الأخروية تأتي جزافاً ـ تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ) ولما كان الأمر كذلك فتح الله تعالى بلطفه الشامل ورحمته الواسعة باباً من الرحمة والرعاية بالعباد عن طريق تعليمات الوحي الغيبية وبواسطة الأنبياء، وهو باب العبادة والمعرفة، فعلم العباد طرق عبادته وفتح لهم سبيلاً إلى المعارف لكي يخففوا من نقائصهم قدر الإمكان ويسعوا لنيل الكمالات الممكنة ويهتدوا بأشعة نور العبودية للوصول إلى عالم كرامة الحق، وإلى الروح والريحان وجنات النعيم، بل إلى رضوان الله الأكبر.

ففتح باب العبادة والعبودية من النعم الكبرى التي تدين لها الكائنات كافة، دون أن تستطيع الوفاء بحق الشكر، بل إن كل شكر هو فتح باب كرامة لا تقدر على شكره أيضاً، فإذا علم الإنسان ذلك وأطلع قلبه عليه علم تقصيره. وحتى لو تقدم إلى أعتاب الله جل جلاله بعبادة الجن والإنس والملائكة المقربين لكان مع ذلك خائفاً ومقصراً.

فعلام تعتمد أيها الإنسان المسكين؟ أعندك متكأ تتكئ عليه؟ أتثق بعملك وتطمئن إليه؟ إذا كان كذلك فالويل لك من غفلتك هذه! وإذا كان اعتمادك على فضل الحق وسعة رحمته وشمول عنايته، فقد اعتمدت على أمر وثيق، ولجأت إلى ملجأ حصين، وقد ورد عن رسول الله ﷺ:

«قال الله تبارك وتعالى: لا يتكل العاملون لي على أعمالهم التي يعملونها لثوابي، فإنهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم ـ أعمارهم ـ في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي والنعيم في جناتي ورفيع الدرجات العلى في جواري، ولكن برحمتي فليثقوا وفضلي فليرجوا وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا فإن رحمتي عند ذلك تدركهم ومني يبلغهم رضواني ومغفرتي تلبسهم عفوي فإني أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك تسميت».

الرجاء وسعة رحمة الله تعالى

جاء في الأحاديث أن الحق تعالى يبسط يوم القيامة بساط رحمته بصورة يطمع حتى الشيطان بالمغفرة منه. وأن الحق سبحانه لم ينظر إلى هذا العالم منذ تكوينه وخلقه نظرة لطف كما ورد في الرواية، وأنه سبحانه وتعالى لم يبعث إلى هذا العالم رحمته إلا بمقدار ذرة بالنسبة إلى العوالم الأخرى، هذه الذرة قد بعثت على إحاطة النعم الإلهية بالجميع من جميع جوانبهم! فكيف إذاً بنعمه سبحانه

في عالم هو عالم كرامته ودار ضيافته وموضع رحمته حيث يبسط رحيميته ورحمانيته ؟! إذن فأكمل حسن ظنك وثق بفضله ﴿**إن الله يغفر الذنوب جميعاً**﴾ ولولا شمولك برحمته الواسعة لما كنت قد خلقت، فكل مخلوق مرحوم ﴿**وسعت رحمته كل شيء**﴾.

الفرق بين الرجاء والغرور

يمكن للإنسان أن يشتبه فيقع في الغرور وهو يظن نفسه من أهل الرجاء، ويمكن التمييز بين الحالتين من خلال أمرين:

1 ـ المصدر والأساس في تكوّن هذه الحالة:

ـ إن كانت هذه الحالة نتيجة ووليدة الاعتقاد الراسخ بسعة رحمة الله وعظمته في قلب الإنسان حتى تعلق بهذه الصفات، وأشرقت عليه هذه الحالة فهو الرجاء.

ـ وإن كانت وليدة التهاون في أوامر الله تعالى والاسترخاء وقلة المبالاة، فهذا غرور ليس من الرجاء بشيء.

2 ـ الآثار المترتبة على هذه الحالة:

ـ إن القلب الذي يعرف الله تعالى حتى وصل إلى مرتبة الرجاء سيكون محاطاً برحمة ذاته المقدسة وبعطاياه، وبالتالي ستراه يقوم بحق العبودية والطاعة، لأن العبادة والطاعة من الأمور الفطرية التي سيقوم بها القلب السليم بلا شك، وفي نفس الوقت ستجد نفسك غير معتمد على أعمالك تلك بل لا تعتبر هذه الأعمال شيئاً يستحق الذكر، وإنما كنت تعتمد على رحمة الله تعالى وفضله وعطائه، فأنت من أهل الرجاء. فاشكر الله تعالى على ذلك.

﴿**إن الذين آمنوا والذين هاجروا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله**﴾.

ـ وأما من يعمل المعاصي ويتكل على أعماله ـ لا سمح الله ـ فهو الغرور! وقد سأل أحدهم أبا عبد الله عليه السلام عن قوم يعملون بالمعاصي ويقولون نرجو فلا

يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت، فقال عليه السلام:

«هؤلاء قوم يترجحون في الأماني. كذبوا ليسوا براجين، إن من رجا شيئاً طلبه ومن خاف من شيءٍ هرب منه».

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام:

«لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو».

إن مثل من لا يعمل وينتظر رحمة ربه ويرجو رضوانه مثل من يرجو المسبب دون أن يعد الأسباب، كالفلاح الذي ينتظر الزرع من دون أن يبذر الأرض أو يهتم بإصلاحها وإروائها، إن مثل هذا الانتظار لا يمكن تسميته رجاء، بل هو حماقة وبله!

سبب تعادل الخوف والرجاء:

ورد في الأحاديث الشريفة أنه لا بد من تعادل الخوف والرجاء " لو وزن هذا لم يزد على هذا ولو وزن هذا لم يزد على هذا "،فالإنسان عندما يدرك قصوره في النهوض بالعبودية ويرى صعوبة وضيق طريق الآخرة يصاب بالخوف، وعندما يجد ذنوبه و يرى بعينه كيف أن هناك بعض الأشخاص الذي كانت بدايتهم حسنة ثم انقلبوا وكانت عاقبة أمرهم الموت دون إيمان أو عمل صالح! سيصاب بالهلع، وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

«المؤمن بين مخافتين ذنب قد مضى لا يدري ما صنع الله فيه، وعمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك فهو لا يصبح إلا خائفاً ولا يصلحه إلا الخوف».

ولكنه في المقابل يرى الحق تعالى في منتهى العظمة والجلال وسعة الرحمة والعطاء.

وحيث أن الله تعالى حاضر في قلب المؤمن بجميع صفاته حيث تتجلى أسماء

الجلال والجمال في قلب العارف بصورة متعادلة، لا يترجح كل من الخوف والرجاء على الآخر.

ـ وهناك من اعتبر أن الخوف أنفع للإنسان في حال صحته وسلامته وعافيته حتى يجهد نفسه بالعمل الصالح، وعند ظهور علامات الموت فالرجاء أفضل حتى يلاقي الإنسان الحق المتعالي على أفضل حال يحبه عليها تعالى.لكن هذا الكلام لا يتطابق مع الروايات المذكورة، ثم إن الخوف من الحق سبحانه محبوب لديه ولا يتنافى مع الرجاء المؤكّد، فوجود الخوف لا ينافي كون الإنسان في أفضل حال يحبها الله تعالى بل يؤكد محبوبية الله تعالى له.

ـ وهناك من ذكر أن وجود الخوف والرجاء في قلب واحد من شؤون الدنيا، فالخوف يفيد المؤمن في الدنيا لأنه يحثه على العمل فيحرص على فعل العبادات وترك المعاصي، وأما في الآخرة فلا يبقى دور للخوف بالنسبة له وإنما سيبقى الرجاء في قلبه لأن الرجاء هو كمال معنوي على كل حال، ولأن العبد كلما نال رحمة الله أكثر كلما زاد طمعه نحو فضل الحق المتعالي أكثر لأن خزائن رحمته لا تنتهي.

يقول العلامة المجلسي رحمه الله: «والحق أن العبد ما دام في دار التكليف لا بد له من الخوف والرجاء، وبعد مشاهدة أمور الآخرة يغلب عليه أحدهما لا محالة بحسب ما يشاهده من أحوالها».

هذا الكلام لو سلمنا بصحته فهو يختص بطبقة المتوسطين حيث يكون خوفهم ورجاؤهم عائدين إلى الثواب والعقاب، وأما الخواص والأولياء فأمرهم مختلف، لأن الخوف والرجاء ناجمان عن مشاهدة عظمة وجلال وتجلي أسماء اللطف والجمال، والحاصلان في القلب لا يزولان بمشاهدة أمور الآخرة، ولا يترجح أحدهما على الآخر بل إن آثار الجلال والعظمة وتجليات الجمال واللطف في عالم الآخرة أكثر، فيصبح الخوف الحاصل من عظمة الحق من اللذائذ الروحانية، وهو بهذا المعنى من الكمالات النفسية.

أسئلة الدرس

1 ـ ما هو منشأ الخوف والرجاء؟

2 ـ ما هي مراتب الخوف؟ وفي أي مرتبة ترى نفسك بينها؟

3 ـ هل يستطيع الإنسان الثناء على الله وعبادته حق العبادة من دون الحاجة إلى الوحي؟ لماذا؟

4 ـ ما الفرق بين الرجاء والغرور؟

5 ـ هناك من اعتبر أن الخوف أنفع للإنسان في حال صحته، والرجاء عند ظهور علامات الموت، ما رأيك في ذلك؟

القسم الثاني

تهذيب النفس

ـ التخلية ـ

الدرس السادس

اتباع الهوى

عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«إنما أخاف عليكم اثنتين: اتباع الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق وأما طول الأمل فإنه ينسي الآخرة».

طبيعة الإنسان في ولادته ونموه:

إن النفس الإنسانية رغم كونها مفطورة على التوحيد والعقائد الحقة، إلا أنها في نفس الوقت منذ ولادتها وخروجها إلى هذا العالم تنمو معها الميول النفسية والشهوات الحيوانية، فالإنسان منذ ظهوره وبعد مروره بمراحل عدة لا يعدو أن يكون حيواناً ضعيفاً لا يمتاز عن سائر الحيوانات إلا بقابلياته الإنسانية، وهذا الأمر يشمل نوع الإنسان بشكل عام وإن كان يستثنى منه بعض الأفراد الذين شملهم اللطف والعناية الإلهية الخاصة وكان عليهم حافظ قدسي، ولكنه استثناء نادر جداً.

فالإنسان عند دخوله هذا العالم تكون الصفات الحيوانية هي الفعالة فيه، فلا معيار له سوى شريعة الحيوانات التي تديرها الشهوة والغضب. وبالإضافة إلى هاتين القوتين نجد الإنسان صفات أخرى لم تكن ممكنة عند الحيوانات، وهي مثل الكذب والخديعة والنفاق والنميمة وسائر الصفات الشيطانية الأخرى التي يجمعها كلمة «هوى النفس» والتي يلجأ إليها الإنسان ليدبّر أمور القوتين الأوليتين، وهو بهذه القوى الثلاث (الغضب والشهوة وهوى النفس) يخطو ويتقدم وينمو، وتنمو معه هذه القوى الثلاث وتتقدم وتتعاظم، وإذا لم تقع تحت تأثير المربي والمعلم، فإنه يصبح عند الرشد والبلوغ حيواناً عجيباً يسبق حتى الحيوانات والشياطين، ويكون أقوى وأكمل في مقام الحيوانية والصفات الشيطانية من

الجميع! وستنطفئ فيه جميع الأنوار الفطرية وبالتالي فلن يصل لشيء من المعارف الإلهية والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة.

مثل هذا الإنسان لن يستطيع أن يولد ولادة ثانية إنسانية، وإذا انتقل من هذا الدار على مثل حالته فلن يرى نفسه في تلك الدار (دار كشف السرائر) إلا حيواناً أو شيطاناً! وتكون هذه نتيجة التبعية الكاملة لأهواء النفس.

ومن هنا يتضح أن ميزان البعد عن الحق هو اتباع هوى النفس، وبمقدار التبعية يحصل البعد.

أما لو استطاع الإنسان أن يجعل مملكة نفسه متأثرة بتربية تعاليم الأنبياء والعلماء والمرشدين لاستسلم شيئاً فشيئاً لهذه التربية وتتفعّل القوى الإنسانية التي كانت مطمورة في نفسه فتظهر آثارها وتصبح هي الفلك الذي يدور حوله كل ما في مملكة النفس بحيث يجعل شيطان نفسه يؤمن على يديه كما قال رسول الله ﷺ: «إن شيطاني آمن بيدي» فتستسلم حيوانيته لإنسانيته وتصبح مطية مروضة على طريق عالم الكمال والرقي وبراقاً يرتاد السماء نحو الآخرة. فكما أن ميزان منع الحق اتباع الهوى، فكذلك ميزان اجتذاب الحق وسيادته هو متابعة الشرع والعقل، وبين هذين المقياسين منازل ومقامات غير متناهية.

قبح اتباع الهوى:

يقول الله تعالى في قبح اتباع النفس وأهوائها:

﴿ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله﴾.

﴿.. ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾.

وجاء في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام:

«قال رسول الله ﷺ: يقول الله عز وجل: وعزتي وجلالي وعظمتي وكبريائي ونوري وعلوّي وارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هواه على هواي إلا شتتّ عليه أمره ولبّست عليه دنياه وشغلت قلبه بها ولم أوته منها

إلا ما قدّرت له، وعزتي وجلالي وعظمتي ونوري وعلوي وارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هواي على هواه إلا استحفظته ملائكتي كفّلت السموات والأرضين رزقه وكنت له من وراء تجارة كلّ تاجر وأتته الدنيا وهي راغمة».

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

«احذروا أهوائكم كما تحذرون أعداءكم، فليس شيء أعدى للرجال من اتباع أهوائهم وحصائد ألسنتهم».

إن رغبات النفس وآمالها لا تنتهي، فإذا اتبعها الإنسان بخطوة واحدة، فستستدرجه للثانية ثم الثالثة وهكذا... فبفتحك باباً واحداً لهوى نفسك فإنك ستصل إلى فتح كل الأبواب وستبتلى بآلاف المهالك، حتى تنغلق جميع طرق الحق بوجهك ـ لا سمح الله ـ وهو أكثر ما يخشاه النبي ﷺ الأئمة عليهم السلام، فهو باضطراب لئلا تضمحل وتسقط أوراق شجرة النبوة والولاية، ولذلك كان يقول ﷺ:

«تناكحوا تناسلوا فإني أباهي بكم الأمم ولو بالسقط».

فإذا كنت على صلة برسول الرحمة ﷺ ومن محبي أمير المؤمنين عليه السلام وأولادهما الطاهرين عليهم السلام فاسعَ لكي تزيل عن قلوبهم المباركة القلق والاضطراب وقد جاء في القرآن الكريم في سورة هود:

﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك...﴾.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال:

«شيّبتني سورة هود» لمكان هذه الآية.

وقد قال أحد العرفاء: «هذا على الرغم من أن هذه الآية قد جاءت في سورة الشورى أيضاً، ولكن من دون **﴿ومن تاب معك﴾** إلا أن النبي ﷺ خص سورة هود بالذكر! والسبب في ذلك أن الله تعالى طلب منه استقامة الأمة أيضاً، فكان يخشى أن لا يتحقق ذلك الطلب، وإلا فإنه بذاته كان مستقيماً اشد استقامة وهو مثال العدل والاستقامة.

فاعمل على أن لا تخجل النبي ﷺ بقبيح عملك وسوء فعلك، كالولد المفسد الذي يخجل أباه أمام الناس ويطأطئ رأسه أمامهم! وقد ورد في الحديث عن النبي ﷺ:

«أنا وعلي أبوا هذه الأمة».

فأيها الإنسان الغافل أهكذا تكافئ من أحسن إليك وهكذا تصون أياديهم البيضاء نحوك؟ وقد تحملوا أشد المصائب وأفظع القتل وأقسى السبي لنسائهم وأطفالهم من أجل إرشادك ونجاتك! اخجل من نفسك واتركهم يعانون من الظلم الذي تحملوه من أعداء الدين من دون أن تضيف على ظلامتهم ظلامة أخرى، لأن الظلم من المحب أشد ألماً وأكثر قبحاً.

تعدد هوى النفس:

إن أهواء النفس متعددة ومتنوعة بحسب ما تتعلق به هذه الأهواء، وكل نوع منها له مراتبه أيضاً، التي قد تكون خفية في بعض الأحيان إلى درجة أن الإنسان لا يلاحظها ويغفل عنها. وهذه المراتب:

1 ـ أصحاب الأهواء الباطلة الذين يعبدون الذهب وغيرها كما يخبر الله تعالى عنهم:

﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾.

2 ـ أصحاب الأهواء والأباطيل الشيطانية في عقائدهم وأخلاقهم الفاسدة، فهم يحتجبون عنه سبحانه بصورة أخرى.

3 ـ أصحاب المعاصي الكبير والصغيرة والموبقات والمهلكات يبتعدون عن سبيل الحق بصورة ثالثة.

4 ـ أهل الأهواء في الرغبات النفسية المباحة مع الانشغال والانهماك فيها يتخلفون عن سبيل الحق بصورة رابعة.

5 ـ أهل المناسك والطاعات الظاهرية الذين يعبدون من أجل عمران الآخرة وتلبية

الشهوات النفسية، ومن أجل البلوغ إلى الدرجات العلى، أو الخشية من العذاب الأليم والنجاة من الدركات السفلى يحتجبون عن الحق وسبيله بصورة خامسة.

6 ـ أصحاب تهذيب النفس وترويضها لإظهار قدرتها في التحلي بالصفات الكمالية، فيفصلون عن الحق ولقائه بشكل آخر.

7 ـ مقامات العارفين الذين لا يهمهم سوى لقاء الحق والوصول إلى مقام القرب، يحتجبون عن الحق وتجلياته الخاصة بنوع سابع لأن التلون وآثار وجوده الخاص لا يزال عندهم موجوداً.

وهناك مراتب فوق تلك أيضاً، فعلى أصحاب هذه المراتب أن يراقبوا حالهم بدقة، وأن يطهروا أنفسهم من الأهواء لئلا يتخلفوا عن طريق الله تعالى ولا يضلوا عن صراط الحقيقة المستقيم، حتى تظل أبواب الرحمة مفتوحة عليهم، مهما كانت مقاماتهم ومراتبهم، والله ولي الهداية.

طول الأمل ينسي الآخرة:

إن اليقظة هي أول منزل من منازل الإنسانية ـ كما يقول كبار أهل السلوك في بيانهم لمنازل السالكين ـ، فعلى الإنسان أن يلتفت إلى أنه مسافر، والمسافر لا بد له من المسير، وأن له هدف يجب الحركة نحوه، وأن الوصول ممكن، وما لم يلتفت إلى هذه الأمور فلن يكون له عزم وإرادة.

إن من أهم أسباب عدم اليقظة هو أن يظن الإنسان أن هناك متسع من الوقت للبدء بالسير، وأنه إذا لم يبدأ اليوم فسيبدأ غداً.

إن طول الأمل هذا والظن بطول البقاء والرجاء بسعة الوقت والأمل بالدنيا، يمنع الإنسان من التفكير في المقصد الأساسي الذي هو الآخرة، ويبعث الإنسان على نسيانه وعدم التزود لهذا السفر، ومن لم يتهيأ لهذا السفر الطويل المحفوف بالمخاطر ولم يعدّ العدة ـ مع ضيق الوقت ـ سيتعثّر ويسقط أثناء الطريق ويهلك

دون أن يهتدي إلى سبيل.

إن أمامك رحلة خطرة لا مناص لك منها، وما يلزمها من عدة وعدد وزاد وراحلة هو العلم والعمل الصالح. وهي رحلة ليس لها موعد معين، فقد يكون الوقت ضيقاً جداً، فتفوتك الفرصة. إن الإنسان لا يعلم متى يقرع ناقوس الرحيل للانطلاق فوراً.

فيا أيها القلب الغافل! انهض من نومك وأعدّ عدّتك للسفر «فقد نودي فيكم بالرحيل»[1]، وعمّال عزرائيل منهمكون في العمل ويمكن في كل لحظة أن يسوقوك سوقاً إلى العالم الآخر، ولا تزال غارقاً في الجهل والغفلة!

«اللهم إني أسألك التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار السرور والاستعداد للموت قبل حلول الفوت»[2].

أسئلة الدرس

1 ـ عند دخول الإنسان إلى هذا العالم أي الصفات تكون هي الفعالة فيه؟

2 ـ ما هي الصفات التي تتضمنها كلمة «هوى النفس»؟

3 ـ في الحديث عن النبي ﷺ: «شيبتني سورة هود»، ماذا كان يقصد بذلك؟

4 ـ ما هي أهم أسباب الغفلة؟

5 ـ كيف يفعّل الإنسان القوى الإنسانية المطمورة في نفسه؟

(1) نهج البلاغة، خطبة 204.

(2) مفاتيح الجنان، دعاء ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان.

الدرس السابع

حب الدنيا

عن الإمام الصادق عليه السلام:

«من أصبح وأمسى والدنيا أكبر همه، جعل الله الفقر بين عينيه وشتت أمره ولم ينل من الدنيا إلا ما قسم له، ومن أصبح وأمسى والآخرة أكبر همه، جعل الله الغنى في قلبه وجمع له أمره».

معنى الدنيا:

إن للدنيا معانٍ عديدة ومختلفة تستعمل فيها عادة، وليس المهم بحث تلك المعاني والتعرف عليها الآن وإنما المهم معرفة الدنيا المضرة التي يجب على الإنسان أن يحذرها ويبتعد عنها، هناك عدة تفسيرات وآراء في معنى الدنيا هذه، منها:

1 ـ الدنيا هي مجموع الأمور التي تبعد عن الله سبحانه وتعالى كالأعمال المبتدعة والأعمال الريائية، حتى وإن كانت مع الترهب وأنواع المشقة، فإنها من الدنيا لأنها مما يبعد عن الله، وبعكسها الآخرة التي هي كل الأمور التي تقرب من الله سبحانه وتعالى، كالتجارات والصناعات والزراعات التي يكون المقصود منها تحصيل المعيشة للعيال امتثالاً لأمر الله تعالى، وصرفها في وجوه البر وإعانة المحتاجين، والصدقات، وصون الوجه عن السؤال، وأمثال ذلك، فإن هذه كلها من أعمال الآخرة وإن كانت عامة الناس يعدونها من الدنيا.

2 ـ الدنيا والآخرة عبارة عن حالتين من أحوال القلب، فالقريب الداني يسمى الدنيا، وهوما كان قبل الموت فيشمل كل ما فيه نصيب وغرض وشهوة ولذة في العاجل قبل الوفاة، والمتأخر يسمى آخرة، وهو كل ما بعد الموت.

3 ـ ما رجحه الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه، حيث ذكر أن الدنيا تطلق

على نشأة الوجود النازلة، والتي هي دار تصرّم وتغير ومجاز، وهو ما يسمى بمقام الظهور والملك والشهود، والاخرة تطلق على النشأة الصاعدة التي تسمى «المقام الباطني والملكوت الغيبي»، ورغم كون هذه المرتبة فيها الكثير من الثغرات والنواقص وتعتبر أسفل مراتب الوجود، إلا أنها مهد تربية النفوس القدسية، ودار تحصيل المقامات العالية ومزرعة الآخرة فهي المغنم الأفضل عند الأولياء.

ما هو المذموم من الدنيا:

الدنيا بالمعنى الذي شرحناه ليست هي مذمومة وقبيحة من جهة نوعها، ولا هي كذلك من جهة قلتها وكثرتها، بل القبيح هو انشداد القلب نحوها ومحبتها.

إذن فنحن أمام نوعين من الدنيا:

1 ـ دنيا ممدوحة ومحببة والمقصود منها الحصول على هذه النشأة والمرتبة من الوجود، حيث أنها مكان التجارة لنيل المقامات واكتساب الكمالات والإعداد لحياة أبدية سعيدة كما جاء في خطبة أمير المؤمنين عليه السلام:

«إن الدنيا دار صدق لمن صدقها ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنىً لمن تزوّد منها، ودار موعظة لمن اتعظ بها، مسجد أحباء الله، ومصلى ملائكة الله، ومهبط وحي الله، ومتجر أولياء الله. اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة...».

وقد قال تعالى عنها في القرآن الكريم ﴿... ولنعم دار المتقين﴾ فقد ورد في تفسير العياشي عن الإمام الباقر عليه السلام أنها الدنيا.

2 ـ دنيا مذمومة والمقصود بها دنيا الإنسان نفسه حيث يتعلق بها ويحبها حتى تصبح منشأ كل المفاسد والخطايا النفسية والعملية. وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام:

«رأس كل خطيئة حب الدنيا».

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام:

«ما ذئبان ضاريان في غنم ليس لها راعٍ هذا في أولها وهذا في آخرها بأسرع فيها من حب المال والشرف في دين المؤمن».

وكلما زاد تعلق القلب بها كلما اشتد الحجاب بين الإنسان ودار الكرامة وبين القلب والحق سبحانه وتعالى وقد جاء في الأحاديث أن لله سبعين ألف حجاب من النور والظلمة، ولعل المقصود من حجب الظلمة هو هذه الميول والتعلقات القلبية نحو الدنيا، فكلما كان التعلق بالدنيا أقوى كان عدد الحجب أكبر، وكلما كان أشد كانت الحجب أغلظ واختراقها صعب.

سبب ازدياد حب الدنيا:

إننا نجد أن الإنسان بشكل عام يحب هذه الدنيا ويتعلق بها إلى درجة قد يصعب عليه فراقها وتركها إلى الآخرة، وهناك عدة عوامل تتسبب بهذا الحب والتعلق وزيادته عند الإنسان بشكل تدريجي، ويمكن اختصار هذه العوامل بما يلي:

1 ـ إن الإنسان وليد هذه الدنيا الطبيعية، وهي أمه، فهو ابن هذا الماء والتراب، فحب هذه الدنيا سيكون مغروساً بقلبه منذ نشوئه ونموه، وكلما كبر في العمر، كبر هذا الحب في قلبه ونما.

2 ـ إن الله تعالى قد وهب الإنسان قوى شهوانية ووسائل تلذذ ضرورية للحفاظ على ذاته ونوعه، والغافل قد يرى الدنيا دار اللذات وإشباع الرغبات، ويرى في الموت قاطعاً لتلك اللذات، حتى لو اقتنع عقلياً بوجود عالماً أخرويا من خلال الأدلة العقلية أو إخبار الأنبياء، فإن قلبه سيبقى غافلاً لم يطلع على عالم الآخرة ليعرف حالاته وكمالاته، فلن يتقبله هذا القلب ولن يصل إلى مرتبة الاطمئنان، ولهذا يزداد حبه وتعلقه بهذه الدنيا.

٣ ـ إن حب البقاء فطري في الإنسان، فهو بفطرته يكره الزوال والفناء، وهو

وإن آمن عـقله بـأن هذه الدنيـا دار فناء ودار ممر، وأن الآخـرة هـي دار البـقـاء، فمادام هذا الإيمـان لم يصلإلى القلب ليصل القلب إلى مرحلة الاطمئنان، سيبقى يتعاطى مع الموت وكأنه فناء وزوال وسيميل بفطرته إلى الدنيا والبقاء فيها.

فلو أدركت القلوب أن هـذه الدنيـا هـي أدنى العـوالم، وأنهـا دار الفنـاء والزوال، وأنها دار النقص، وأن العوالم الأخرى التي تكون بعد الموت عوالم باقية وأبدية، وأنهـا دار كـمـال وثبـات وحـيـاة وبهجـة وسـرور، لحـصل فـيهـا بالفطرة حب تلك العوالم، ولنفرت من هذه الدنيـا، واشـتـاقت للتخلص من هذا السجن المظلم. كما كان يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«**والله لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمه**».

ذلك لأنه رأى بعين الولاية حقيقة هذه الدنيا، فلا يؤثر على مجاورة رحمة الله المتعالي شيء أبداً.

إن أكثر أنين الأولياء إنما هو من ألم فراق المحبوب والبعد عن كرامته كما أشاروا إلى ذلك بأنفسهم في مناجاتهم، على الرغم من أنهم لا يحجبهم حجاب ملكي أو ملكوتي، وقد اجتازوا جحيم الطبيعة الذي كان خامداً غير مستعر، لكن وجودهم في هذه الطبيعة يعتبر تلذذا قسرياً طبيعياً ـ حتى وإن كان بأقل قدر ممكن ـ ويعد ذلك حجاباً، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ:

«**لَيُران على قلبي، وإني لأستغفر الله في كل يوم سبعين مرة**».

ولعل خطيئة آدم أبي البشر نجمت عن هذا التوجه القسري نحو الحاجات الطبيعية الاضطرارية إلى القمح وسائرالأمور الطبيعية، وهذه خطيئة بالنسبة لأولياء الله والمنجذبين إليه.

تأثير المكتسبات الدنيوية على القلب:

إن كل ما يكسبه الإنسان ويناله في هذه الدنيا يترك أثراً طبيعياً في القلب، وهو السبب في تعلقه بالدنيا، وكلما ازداد التلذذ بالدنيا اشتد تأثر القلب وتعلقه

بها وحبه لها إلى أن يتجه القلب كلياً نحو الدنيا وزخارفها. إن جميع خطايا الإنسان وابتلاءه بالمعاصي والسيئات سببها هذا الحب. وقد جاء في الرواية عن أبي عبد الله عليه السلام:

«مثل الدنيا كمثل ماء البحر كلما شرب منه العطشان ازداد عطشاً حتى يقتله»..

ولنلفت إلى بعض النماذج من مفاسد حب الدنيا:

1 ـ من المفاسد الكبيرة لحب الدنيا ـ كما كان يقول أحد العرفاء ـ أنه حين ينطبع حب الدنيا على صفحة قلب الإنسان، ويشتد الأنس بها، ينكشف له عند الموت أن الحق المتعالي يفصل بينه وبين محبوبه ويفرق بينه وبين مطلوبه، فيغادر الدنيا ساخطاً مغتاظاً على ولي نعمته! فعلى الإنسان أن يستيقظ ويتنبه للحفاظ على قلبه.

2 ـ من المفاسد أيضاً أن الإنسان يصل إلى حالة الخوف من الموت، نتيجة تعلق قلبه بالدنيا، فهو يخاف ترك محبوبه! وهذا يختلف عن الخوف الناشئ من المآل ومصير الإنسان في الآخرة فهو من صفات المؤمنين.

3 ـ على فرض أن هذا الإنسان لم يرتكب شيئاً من هذه المعاصي ـ وهو افتراض بعيد جداً، بل ومستحيل عادة ـ فإن التعلق بالدنيا نفسه معصية.

4 ـ من المفاسد أن حب الدنيا يمنع الإنسان من العبادات والمناسك والرياضات الروحية ويقوي جانب الطبيعة فيه بحيث يجعلها تعصي الروح وتتمرد عليها وتضعف عزم الإنسان وإرادته فيضيع أثر وسر العبادات ألا وهو انقياد القوى الطبيعية للروح والجسم للإرادة، ويصبح ملك الجسم وقواه الظاهرة مقهوراً ومسخراً للملكوت بحيث يقوم بما يريد.

فحب الدنيا إذن ينتهي بالإنسان إلى الهلاك الأبدي، وهو أصل البلايا والسيئات الباطنية والظاهرية. وقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله

«إن الدرهم والدينار أهلكا من كان قبلكم، وهما مهلكاكم».

أسئلة الدرس

1 ـ ما معنى الدنيا برأي الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه؟

2 ـ ما سبب تعلق الإنسان بالدنيا؟

3 ـ ما الحكمة في خلق قوى شهوانية في الإنسان؟

4 ـ كيف تفسر الرواية عن النبي ﷺ: «**ليران على قلبي**»؟

5 ـ كيف يمكن أن يصل حب الدنيا بالإنسان إلى درجة السخط على ولي النعم سبحانه؟

الدرس الثامن

العجب ـ ١ ـ

﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً فَإِنَّ اللَّه يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلا تَذْهَبَ نَفسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾

عن أبي الحسن موسى الكاظم عليه السلام:

«العجب درجات منها أن يزين للعبد سوءُ عمله فيراه حسناً فيعجبه ويحسب أنه يحسن صنعاً، ومنها أن يؤمن العبد بربه فيمنّ على الله عز وجل ولله عليه فيه المنّ».

ما معنى العجب؟

العجب كما عرفه العلماء هو: «تعظيم العمل الصالح واستكثاره والسرور والابتهاج به والتغنج والدلال من خلاله، واعتبار الإنسان نفسه غير مقصر».

فالعجب في نظرهم يتألف من هذه العناصر مجتمعة، ولتوضيحه أكثر يقول الشيخ بهاء الدين العاملي قدس سره: «**لا ريب في أن من عمل أعمالاً صالحة من صيام الأيام وقيام الليالي، وأمثال ذلك يحصل لنفسه ابتهاج. فإن كان من حيث كونها عطية من الله له، ونعمة منه تعالى عليه، وكان مع ذلك خائفاً من نقصها، شفيقاً من زوالها، طالباً من الله الازدياد منها، لم يكن ذلك الابتهاج عجباً. وإن كان من حيث كونها صفته وقائمة به ومضافة إليه، فاستعظمها وركن إليها، ورأى نفسه خارجاً عن حد التقصير، وصار كأنه يمن على الله سبحانه بسببها فذلكهو العجب**».

فنستطيع أن نقول: إن العجب عندهم يتألف من هذه العناصر الخمسة: عمل، صالح، سرور، تغنج ودلال، استكثار وإحساس بإيفاء الحق والخروج عن التقصير.

وما ذكروه رضوان الله تعالى عليهم صحيح، مع بعض الشرح والتعديل، فيجب

اعتبار العمل يشمل العمل الظاهري والباطني، يعني يشمل عمل البدن وتوجهات القلب، ولا يشترط في العمل أن يكون صالحاً بل يمكن أن يصاب الإنسان بالعجب من خلال عمله الشنيع أيضاً كما هو واضح في الرواية التي نقلناها عن الإمام الكاظم عليه السلام، فهو يعجب بخصاله وصفاته سواء كانت صالحة أم طالحة.

درجات العجب:

إن للعجب ـ كما وردت إليه الإشارة في الحديث الشريف ـ درجات ثلاث:

الدرجة الأولى: على مستوى العقائد والمعارف، فقد يصاب الإنسان بالعجب بالإيمان والمعارف الحقة ويقابله العجب بالكفر والشرك والعقائد الباطلة.

الدرجة الثانية: على المستوى الأخلاقي، وهو العجب بالملكات الفاضلة والصفات الحميدة أو العجب بسيئات الأخلاق وباطل الملكات.

الدرجة الثالثة: على مستوى الأعمال، حيث قد يعجب الإنسان بالأعمال الصالحة والأفعال الحسنة أو يعجب بالأعمال القبيحة والأفعال السيئة.

مراتب العجب:

إن لكل واحدة من درجات العجب الآنفة الذكر مراتب، وهذه المراتب بعضها واضح وبين يمكن للإنسان الإطلاع عليها بأقل تنبه والتفات وبعضها الآخر دقيق للغاية وخفي لا يستطيع أن يدركه الإنسان ما لم يفتش ويدقق بصورة صحيحة، وهذه المراتب يختلف تأثيرها بطبيعة الحال من حيث شدتها وصعوبتها وكثرة تدميرها وتخريبها:

المرتبة الأولى: وهي أشد المراتب وأهلكها، حيث يكون العجب في قلب الإنسان شديداً إلى درجة أنه يمن بإيمانه وصفاته الحميدة على ولي نعمته ومالك الملوك، فيتخيل أن الساحة الإلهية قد اتسعت بسبب إيمانه! أو أن دين الله قد اكتسب رونقاً بذلك وأنه بإرشاده وهدايته أو بأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر وإقامة

الحدود أو بمحرابه ومنبره قد أضفى على دين الله بهاءً جديداً. أو أنه بحضور جماعة المسلمين وإقامة مجالس العزاء قد أضفى على الدين جلالاً. لذلك يمن على الله وعلى سيد المظلومين وعلى رسول الله ﷺ، وإن كان لا يظهر هذه الحالة وإنما يبطنها في قلبه.

وتتبع هذه الحالة المنة على عباد الله في الأمور الدينية، كالذي يمن على الضعفاء والفقراء بإعطائهم الصدقات الواجبة والمستحبة ومساعدتهم، وأحياناً تكون هذه المنة خافية حتى على الإنسان نفسه!

المرتبة الثانية: وهي أن يصل فيه العجب إلى درجة التغنج والتدلل على الله تعالى، وهذا غير المنة، فإن صاحب هذا المقام يرى نفسه محبوباً لله تعالى، ويرى نفسه في سلك المقربين والسابقين، وإذا ذكر أولياء الله والمحبين والسالكين المجذوبين إليه اعتقد في قلبه أنه منهم، وقد يظهر التواضع رياء وقلبه على خلاف ذلك، أو ينفي عن نفسه هذا المقام ليثبته لنفسه لأن التواضع من مستلزمات هذا المقام.وإذا ما ابتلاه الله تعالى ببلاء راح يعلن أن «البلاء للولاء».

المرتبة الثالثة: أن يرى العبد نفسه دائناً لله تعالى، وأنه بذلك يكون مستحقاً للثواب حتى لو عامله الله تعالى بعدله، ويرى واجباً على الله تعالى أن يجعله عزيزاً في الدنيا ومن أصحاب المقامات في الآخرة، وإذا أصابه بلاء وصادفه ما لا يرغب فإنه يعترض على الله في قلبه ويتعجب من ابتلاء المؤمن ورزق المنافق، ويغضب في باطنه على الله تبارك وتعالى وتقديره، ولكنه يظهر الرضا في الظاهر، ويسلي نفسه عندما يسمع أن المؤمن مبتلى وهو غافل عن أن الكثير من المنافقين يصيبهم البلاء أيضاً وليس كل مبتلٍ مؤمناً.

المرتبة الرابعة: أن يرى الإنسان نفسه متميزاً عن سائر الناس، فهو أفضل من العاديين بالإيمان، وأفضل من المؤمنين بكمال الإيمان، وبالصفات الحسنة عن غير المتصفين بها، وبفعل الواجب وترك الحرام عمن لا يفعل، وكذلك بالنسبة لفعل المستحبات، فيثق بنفسه وبأعماله ويرى سائر الخلق ناقصين وينظر إليهم بعين

الاحتقار ويطعن بهم بقلبه أو لسانه ويعيبهم ويبعد كلاً منهم بصورة ما عن ساحة رحمة الله، ويجعل الرحمة خالصة له ولأمثاله.

هذه علامات العجب التي قد يغفل الإنسان عنها، وهناك مراتب أخرى له أدق من ذلك.

دقة حيل الشيطان:

إن الشيطان ـ وكذلك النفس الأمارة ـ عندما يتعامل مع الإنسان يتعامل معه عن تخطيط ودراسة، فهو لا يطلب من الإنسان المتقي الوقوع في الآثام العظيمة بداية كالقتل والسرقة والزنا...، وكذلك في العجب فهو لن يطلب من الإنسان بداية المنّ على الله بهذه الأعمال، أو أن يحسب نفسه في زمرة المحبوبين المقربين، وإنما يبدأ الأمر بالخطوة الأولى ليشق طريقة نحو القلب ويستولي عليه بشكل تدريجي.

فتجده يؤكد عليك الالتزام بظواهر المستحبات والأذكار والأوراد، بل يدفعك نحو الحرص الشديد عليها حتى تظن بنفسك خيراً، وفي الوقت نفسه تجده يركز في قلبك قبح معصية معينة موجودة عند بعض أهل المعاصي غير موجودة عندك، ويضعها تحت المجهر ويضخمها حتى يصبح فاعلها أقبح من إبليس في نظرك، ثم يبدأ يوحي لك بأنك أفضل من مرتكب المعصية هذا بحكم العقل والشرع، وأنك طاهر بريء من المعاصي وأنك من أهل النجاة حتماً بحكم أعمالك الصالحة، فينتج عن هذا الإيحاء أمران كلاهما من المهلكات:

1 ـ سوء الظن بعباد الله.

2 ـ العجب بالنفس.

هذا في المرحلة الأولى، ثم بشكل تدريجي ينتقل إلى المراحل الأخرى حتى يصل في النهاية إلى مرحلة يمن فيها على ولي نعمته بإيمانه وأعماله ويصل إلى أسفل الدرجات!

رد حيل الشيطان:

في هذه الحالة يجب أن يخاطب الإنسان نفسه والشيطان ليقول: إن هذه المعصية التي وقع بها فلان هي أقل قبحاً من العجب الذي وقعت فيه أنا، وقد ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام:

«**إن الله علم أن الذنب خير للمؤمن من العجب ولولا ذلك ما ابتلى مؤمناً بذنب أبداً**».

ولعل سوء ظني بهذا الإنسان سيوصلني إلى سوء العاقبة فأكون من أهل النار! ويكون له أعمال صالحة لها نور ترفع ظلمات معصيته تلك فيكون من أهل الجنة.

وكان يقول أحد العارفين: «**لا تعيبوا على أحد حتى في قلوبكم، وإن كان كافراً، فلعل نور فطرته يهديه، ويقودكم تقبيحكم ولومكم هذا إلى سوء العاقبة**»

وكان يقول: «**لا تلعنوا الكفار الذين لا يعلم بأنهم رحلوا عن هذا العالم وهم في حال الكفر، فلعلهم اهتدوا في أثناء الرحيل**».

عجب أهل الفساد بفسادهم:

إن أهل الكفر والنفاق وأهل الأخلاق السيئة والصفات الرديئة وأهل المعاصي والفساد قد يصلون أحياناً إلى درجة الإعجاب بزندقتهم وأخلاقهم السيئة وموبقات أعمالهم! ويسرّون بها، ويرون أنفسهم من أصحاب الحرية الخارجة عن التقليد والمحررة من التعقيد، والبعيدة عن الخرافات، فيتصورون أن الإيمان بالله والتدين من ضعف العقل وصغره، والأخلاق الحسنة والصفات الفاضلة من ضعف النفس والمسكنة، والأعمال الحسنة والعبادات من ضعف الإدراك.

هؤلاء قد استولت الصفات القبيحة على قلوبهم حتى استأنسوا بها وتصوروها كمالاً، وهذه الحالة هي التي أشار إليها الحديث الشريف:

«**العجب درجات، منها أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجبه ويحسب أنه يحسن صنعاً**».

إشارة إلى قوله تعالى:

﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾.

وهناك عدة آيات في القرآن الكريم تشير إلى هذه الحالة قوله تعالى:

﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً * الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً * أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا﴾[1].

هؤلاء هم أكثر الناس مسكنة وأسوأ الخلائق حظاً وأولئك يعجز أطباء النفوس عن علاجهم ولا تؤثر فيهم الدعوة والنصيحة بل قد تعطي أحياناً نتيجة عكسية.

إن النفس والشيطان يهونان المعاصي في عين الإنسان حتى إذا وقع في معصية استدرجاه إلى أخرى حتى يصل إلى درجة الاستهانة بالشريعة والقانون الإلهي وتوصله يداه إلى الزندقةوالكفر والإعجاب بهما!

عن الإمام الصادقعليه السلام: يدخل رجلان المسجد، أحدهما عابد والآخر فاسق، فيخرجان من المسجد والعابد صدِّيق والعابد فاسق، وذلك أنه يدخل العابد المسجد وهو مدلٌّ بعبادته وفكرته في ذلك، ويكون فكرة الفاسق في التندّم على فسقه فيستغفر اللّه من ذنوبه.

أسئلة الدرس

1 ـ الابتهاج بالعمل، متى يكون عجباً ومتى لا يكون؟

2 ـ ما هي أشد مراتب العجب وأهلكها؟

3 ـ ما الفرق بين المرتبة الأولى والثالثة من مراتب العجب؟

4 ـ ما الذي يتسبب بوقوع الإنسان بالعجب بأعماله الفاسدة؟

5 ـ ما هي حيلة الشيطان لإيقاع الإنسان بالعجب؟

(1) الكهف الآية ١٠٣ .

الدرس التاسع

العجب -٢-

عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إن الله علم أن الذنب خير للمؤمن من العجب ولولا ذلك ما ابتلى مؤمناً بذنب أبداً».

آثار ومفاسد العجب:

إن العجب من الموبقات والمهلكات وقد ورد في الحديث الشريف عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«من دخله العجبهلك».

وقال الله تعالى لداود:

«يا داود بشر المذنبين وأنذر الصديقين، قال: يا رب كيف أبشر المذنبين وأنذر الصديقين قال: يا داود بشر المذنبين أني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب، وأنذر الصديقين ألا يعجبوا بأعمالهم فإنه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك».

أعوذ بالله تعالى من المناقشة في الحساب التي تهلك الصديقين ومن هو أعظم منهم.

وصورة هذا العجب في البرزخ وما بعد الموت تكون موحشة ومرعبة جداً لا نظير لها في الهول، وأوضح ما يشير إلى ذلك قول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله في وصيته لأمير المؤمنين عليه السلام:

«ولا وحدة أوحش من العجب».

وللعجب أثار ومفاسد تتبعه، يقع الإنسان بها إذا أصيب بالعجب، نذكر بعضها:

١ - إحباط الأعمال: إن العجب يحبط إيمان الإنسان وأعماله ويفسدها، وفي

الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام أن الشيطان يقول:

«إذا ظفرت بابن آدم في ثلاث فلا يهمني عمله بعد ذلك لأنه لن يقبل منه: إذا استكثر عمله، ونسي ذنبه، وتسرب إليه العجب».

٢ ـ **يستحوذ عليه الشيطان** ويصبح فريسة سهلة أمامه، وقد ورد أنه سأل موسى بن عمران ـ على نبينا وآله وعليه السلام ـ الشيطان:

«أخبرني بالذنب الذي إذا ارتكبه ابن آدم استحوذت عليه، قال: إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله وصغر في عينه ذنبه».

٣ ـ **استصغار الذنوب**، بل إن صاحب العجب يظن أن نفسه زكية طاهرة فلا ينهض لإصلاح نفسه، ولا يخطر على باله أبداً أن يطهرها من المعاصي لأن ستار العجب وحجابه الغليظ يحول بينه وبين أن يرى عيوبه، وهكذا سيبتلى الإنسان بأنواع النواقص دون أن يكون قادراً على معرفتها وإصلاحها، مما سيوصله إلى الهلاك الأبدي...

٤ ـ **اعتماد الإنسان على أعماله**، وهذا ما يصبح سبباً في أن يحسب الإنسان نفسه في غنى عن الحق تعالى، ولا يرى لله تعالى فضلاً عليه! ويرى ـ بحسب عقله الصغير ـ أن الحق تعالى ملزم بأن يعطيه الأجر والثواب، ويتوهم أنه لو عومل بالعدل أيضاً لاستحق الثواب.

٥ ـ **احتقار عباد الله**، فيحسب أعمال الناس لا شيء وإن كانت أفضل من أعماله ويسيء الظن بعباد الله ويرى نفسه أرفع منهم جميعاً.

٦ ـ **من مفاسده أيضاً أنه يدفع الإنسان إلى الرياء**، لأن الإنسان إذا استصغر أعماله ووجد أخلاقه فاسدة وإيمانه لا يستحق الذكر، لا يطرح بضاعته تلك ولا يتظاهر بها، فإن البضاعة الفاسدة غير صالحة للعرض، ولكنه إذا رأى نفسه كاملاً وأعماله جيدة، فإنه يندفع إلى التظاهر والرياء ويعرض نفسه على الناس.

٧ ـ **من مفاسده أيضاً أنه يوصل الإنسان إلى التكبر**، وهو رذيلة مهلكة سيأتي الكلام عنها مفصلاً فيما بعد إن شاء الله تعالى.

فالعجب هو شجرة خبيثة تنتج الكثير من الكبائر والموبقات، فمن المحتم أن يعتبر الإنسان نفسه ملزماً بالنهوض لإصلاح النفس، وتطهيرها من هذه الرذيلة واستئصال جذورها من باطن النفس لئلا ينتقل لا سمح الله إلى العالم الآخر وهو بهذه الصفة فيكون حال أهل الكبائر أفضل من حاله، فيغمرهم الله برحمته الواسعة بسبب ندمهم أو بسبب ما كان لديهم من رجاء بفضل الله تعالى، وأما هذا المسكين الذي حسب نفسه غنياً عن الله تعالى، فسيرى العدل الإلهي إذا تجلى ولم تشمله الرحمة الإلهية، سيرى حساباً عسيراً وسيخضع لميزان العدل، فيعلم أنه لم يقم بأي عبادة لله تعالى وأن كل أعماله وإيمانه باطل وتافه، بل وأن تلك الأعمال والعبادات نفسه هي سبب الهلاك وبذرة العذاب الأليم ورأس مال الخلود في الجحيم. عندما يعلن رسول الله محمد المصطفى ﷺ قائلاً:

«ما عرفناك حق معرفتك وما عبدناك حق عبادتك».

فماذا سيكون حال سائر الناس؟ نعم أنهم ﷺ العارفون بفقرهم وبغناه تعالى، فلو قضوا جميع أعمارهم بالعبادة والطاعة والتحميد والتسبيح، لما أدوا شكر نعم الله، أي كمال يملكه الفقير بنفسه؟ وأي جمال لم يأخذه من ربه؟ وأي قدرة يمتلكها لكي يتاجر بها؟

﴿ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك﴾.

أساس العجب ـ حب النفس:

الإنسان مفطور على حب الذات، وبسبب هذا الحب يرى الإنسان أعماله الصغيرة كبيرة، ويرى نفسه من الصالحين ومن خاصة الله، ومستحقاً للمدح والثناء على تلك الأعمال الزهيدة والتافهة، وفي بعض الأحيان تلوح لنظره قبائح أعماله حسنة، فيما لا يعير أعمال غيره ممن هم أفضل منه أي أهمية، بل يصف أعمال الصالحين بالقبح.

وبسبب حبه لنفسه هذا يرى أن الله مدين له وأنه يستوجب منه الرحمة ـ

بسبب تلك الأعمال الزهيدة المصحوبة بآلاف الشوائب المبعدة عن الله تعالى ـ، فجميع الأخطاء والمعاصي الإنسانية والرذائل الأخلاقية أساسها حب النفس.

ولكننا إذا أبعدنا تأثير حب النفس هذا ونظرنا بعين الإنصاف إلى هذه الأعمال لنرى هل أننا نستحق عليها المدح والثواب والرحمة أم أننا جديرون باللوم والعقاب والنقمة، فماذا سنرى؟

لمن العبادات؟

إذا أردتم أن تعرفوا قيمة أعمالكم فلتطرحوا على أنفسكم السؤال التالي:

لو فرضنا أن النبي ﷺ أخبركم أنكم إذا عبدتم الله طوال عمركم وأطعتم أوامره وتركتم شهوات النفس ورغباتها، أو فعلتم عكس ذلك فتركتم العبادة وعملتم خلاف أوامره وغرقتم في الشهوات ورغبات النفس طوال حياتكم، أخبركم أنه في كلتا الحالتين لن تختلف درجاتكم في الجنة، فلا فرق من هذه الجهة بين أن تصلوا أو تزنوا، ولكن من جهة أخرى يكون رضا الله تعالى في عبادته والثناء عليه وحمده والابتعاد عن الشهوات والرغبات ـ مع عدم الثواب على ذلك ـ فهل كنتم تصبحون من أهل المعصية أم من أهل الطاعة؟ هل كنتم تتركون الشهوات من أجل رضا الله والتقرب إليه والرغبة فيه؟ هل كنتم من المتوسلين إليه بالمستحبات والجمعة والجماعات؟ أم أنكم كنتم ستغرقون في الشهوات وتلازمون اللهو واللعب والملاهي...؟ إنني أعلن عن نفسي وعمن هم على شاكلتي بأنا كنا نصبح من أهل المعصية ونترك الطاعات ونعمل بالشهوات!

قيمة هذه العبادات:

إن جميع أعمالنا هي من أجل اللذات ومن أجل الاهتمام بالبطن والفرج، إننا عباد البطن والشهوة، ونترك لذة صغيرة للذة كبيرة وأعظم، إن صلاتنا التي هي معراج المؤمن نؤديها قربة لنساء الجنة ولا علاقة لها بالتقرب إلى الله!

إن جميع عباداتنا هذه هي من كبائر الذنوب عند أولياء الله الصالحين العارفين له تعالى.

أيها العزيز إن الصلاة التي تكون لأجل امرأة، سواء كانت في الدنيا أم في الجنة، لا تكون لله تعالى، فلماذا تتدلل إلى هذا الحد وتنظر إلى عباد الله بعين الاحتقاروتحسب نفسك من خواص الله تعالى!

الثواب تفضل لا استحقاق:

اعمل الأعمال التي أُمرت بها واعلم أنها ليست لأجل الله، واعلم أن الله يدخلك الجنة بتفضله ورحمته.

إن الله تعالى خفف عن عباده لضعفهم بالتجاوز عن دوافعهم تلك التي تعتبر نوعاً من الشرك، وطواه بغفرانه وأسدل عليه وستره برحمته، فحاذر من تمزق ستار الرحمة هذا بالعجب، فإذا حصل لا سمح الله أن انطوت صفحتك هذه ورحلت من الدنيا وجاءت صفحة العدل فإن عفونة عباداتنا عندئذٍ لن تقل عن عفونة المعاصي والموبقات التي يرتكبها أهل المعصية، وقد أسلفنا الحديث القدسي:

(يا داود بشر المذنبين وأنذر الصديقين. قال: كيف أبشر المذنبين وأنذر الصديقين؟ قال: يا داود بشر المذنبين أني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب وأنذر الصديقين أن لا يعجبوا بأعمالهم فإنه ليس عبد أنصبه للحساب إلا هلك).

لأنه مستحق للعذاب وفق العدالة. فإن ثواب عبادات العبد لا تعادل شكر واحدة من نعمائه.فإذا كان هذا حال الصديقين وهم المطهرون من الذنب والمعصية! فماذا نقول نحن؟

هذا كله إذا كان عملنا خالصاً من الرياء الدنيوي والمعاصي والموبقات، وقلما تخلو الأعمال وتخلص من الرياء والنفاق!

عبادتك تستوجب التوبة لا العجب!

بعد كل ما ذكرناه، عليك أن تتوب من تلك الأكاذيب التي قلتها في حضرة الله تعالى، ومما نسبته إلى نفسك دون دليل. ألا ترى أن عليك أن تتوب من قولك وأنت تقف أمام الله قبل الدخول في الصلاة ﴿**إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين**﴾، وكذلك قولك: ﴿**إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين**﴾، فهل وجوهكم متوجهة إلى فاطر السماوات والأرض؟ هل أنتم خالصون من الشرك؟ هل صلاتك وعباداتكم وحياتكم ومماتكم لله؟

ثم بعد ذلك عندما تقولون ﴿**الحمد لله**﴾ فهل أنتم حقاً تقرون أن المحامد كلها لله؟ أم أنكم تقرون بالحمد لعباده بل ولأعدائه؟، أليس قولكم ﴿**رب العالمين**﴾ هو كذب أيضاً، لأنكم في الوقت نفسه تقرون بالربوبية لغيره تعالى في هذا العالم؟ أفلا يحتاج ذلك للتوبة والخجل؟

وحينما تقول ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾ فهل تراك تعبد الله أم تعبد بطنك وفرجك؟ هل أنت تطلب الله أو الحور العين؟ هل تطلب العون من الله فقط؟ إن الشيء الذي نغفل عنه في الأعمال هو الله تعالى.

ثم عندما تذهب إلى بيت الله تعالى فهل أنت تقصد الله تعالى صاحب الدار وقلبك مترنم بقول الشاعر:

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديار

أباحث أنت عن الله؟ طالباً لآثار جماله وجلاله؟ الأجل سيد المظلومين تقيم العزاء؟ ألأجله؟ تلطم على رأسك وصدرك أم لأجل الوصول إلى آمالك وأمانيك؟ أهي بطنك التي تدفعك لإقامة مجالس العزاء، وشهوة الظهور هي التي تدفعك للذهاب إلى صلاة الجماعة، وهوى النفس هو الذي يجرك للمناسك والعبادة؟.

فيا أيها الأخ، كن حذراً تجاه مكائد الشيطان واعلم أنه لن يدعك تؤدي عملاً واحداً بإخلاص، وحتى هذه الأعمال غير الخالصة التي يتقبلها الله بفضله لا

يدعك الشيطان تصل من خلالها إلى الأهداف المقصودة منها، فيعمل على إحباطها وتخسر حتى هذا النفع بسبب العجب والتدلل في غير موقعه! وحتى أنك لن تصل إلى الجنة وحور العين، بل تخلد في العذاب ويشملك الغضب الإلهي كذلك.

أسئلة الدرس

1 ـ بيّن ثلاثة من آثار العجب مع شرح كيفية ارتباطها به؟

2 ـ كيف يمكن للعبادات أن تصبح سبب الهلاك وبذرة العذاب الأليم؟

3 ـ كيف تربط بين حب النفس والعجب؟

4 ـ هل الثواب تفضّل أم استحقاق؟ لماذا؟

5 ـ لماذا اعتبر بعض العرفاء أن عبادتنا هذه هي من كبائر الذنوب؟

الدرس العاشر

الرياء ـ ١ ـ

عن الصادق عليه السلام:

«قال النبي صلى الله عليه وآله: إن الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به فإذا صعد بحسناته يقول الله عز وجل: اجعلوها في سجّين، إنه ليس إياي أراد بها».

معنى الرياء:

الرياء هو إظهار وإبراز شيء من الأعمال الصالحة أو الصفات الحميدة أو العقائد الحقة، للناس لأجل الحصول على منزلة في قلوبهم والاشتهار بينهم بالصلاح والاستقامة والتدين، من دون أن تكون هناك نية إلهية صحيحة.

فالرياء بناء على هذا التعريف يكون في أمور ثلاث: العقائد الحقة، والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة.

ويكون الرياء في هذه الأمور الثلاثة من جهتين:

الأولى: إظهار العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة من أجل الحصول على منزلة في القلوب.

الثانية: يبعد عن نفسه العقائد الباطلة والأخلاق السيئة والأعمال القبيحة لنفس الهدف.

وسنتعرض لهذه الأمور بشيء من التفصيل:

أولاً ـ الرياء في أصول العقائد:

إن الرياء في أصول العقائد والمعارف الإلهية أشد من جميع أنواع الرياء عذاباً وأسوأها عاقبة، وظلمته أشد من ظلمات جميع أنواع الرياء.

والمرائي إن كان في واقعه لا يعتقد بالأمر الذي يظهره فهو من المنافقين، ونتيجة ذلك ستكون الخلود في النار والهلاك الأبدي والعذاب أشد العذاب.

وأما إن كان يعتقد بما يظهره، ولكنه يظهره من أجل الحصول على منزلة في قلوب الناس، فهو وإن لم يكن منافقاً إلا أن رياءه يؤدي إلى زوال نور الإيمان من قلبه ودخول ظلمة الكفر، وفعله هذا من الشرك الخفي، لأن هذه المعارف الإلهية لم تكن خالصة لله بل حولها المرائي إلى الناس، وهكذا وبشكل تدريجي سيصبح قلبه مختص بغير الله تعالى، فيخرج من هذه الدنيا بدون إيمان حقيقي، وقد جاء في الحديث الشريف:

«كل رياء شرك».

وعن أبي عبد الله عليه السلام:

«قال الله عز وجل: أنا خير شريك، من أشرك معي غيري في عمل عمله لم أقبله إلا ما كان لي خالصاً».

الفرق بين العلم والإيمان:

قد يحصل للإنسان علم بالله تعالى ووحدانيته وسائر صفاته الكمالية الثبوتية والجلالية السلبية، وكذلك يعلم بالملائكة والرسل والكتب ويوم القيامة. ولكنه في نفس الوقت ليس بمؤمناً!، وما أكثر هذا النوع من الناس.

ويمكننا أن نمثل بالشيطان، فهو رغم علمه بجميع هذه الأمور بقدر علمنا، ولكنه كافر غير مؤمن.

والسبب في ذلك أن الإيمان عمل قلبي، يتضمن التقبل والاستسلام الخضوع والاعتراف. فقد يحصل للإنسان علم في العقل بكل هذه المعاني دون أن يخضع ويستسلم لها في قلبه. ولنضرب مثالاً محسوساً لذلك:

أنتم قد أدركتم بعقولكم أن الميت لا يستطيع أن يضر أحداً، وأن جميع الأموات في العالم ليس لهم حس ولا حركة بقدر ذبابة، وأن جميع القوى الجسمانية والنفسانية قد فارقته، ولكن حيث أن القلب لم يتقبل هذا الأمر ولم يسلم أمره

للعقل فإنكم لا تقدرون على مبيت ليلة مظلمة واحدة مع ميت!

وأما إذا سلّم القلب أمره للعقل وتقبل هذا الحكم منه، فلن يكون في هذا العمل ـ أي المبيت مع الميت ـ أي إشكال بالنسبة إليكم، كما أنه وبعد عدة مرات من الإقدام يصبح القلب مسلّماً، فلن يبقى عنده بعدها خوف من الميت.

ومن الممكن أن يبرهن إنسان بالدليل العقلي على وجود الخالق تعالى والتوحيد والمعاد وباقي العقائد الحقة، ولكن ذلك لا يسمى إيماناً، ولا يجعل الإنسان مؤمناً، فلعله من جملة الكفار أو المنافقين أو المشركين. فاليوم العيون مغشاة، والبصيرة الملكوتية غير موجودة، والعين الملكية لا تدرك ولكن عند كشف السرائر وظهور السلطة الإلهية الحقة، وخراب الطبيعة وانجلاء الحقيقة، سيعرف ويلتفت بأن الكثيرين لم يكونوا مؤمنين بالله حقاً، وأن حكم العقل لم يكن مرتبطاً بالإيمان، فما لم تكتب عبارة **﴿لا إله إلا الله﴾** بقلم العقل على لوح القلب الصافي لن يكون الإنسان مؤمناً بوحدانية الله تعالى.

وعندما ترد هذه العبارة النورانية إلى القلب، تصبح سلطة القلب لذات الحق تعالى، فيسلم أن لا مؤثر في الوجود إلا الله تعالى ولا ملك سواه، ولا يتوقع من شخص آخر جاهاً ولا تنزيهاً، ولا يبحث عن المنزلة والشهرة عند الآخرين. وبالتالي فلن يكون القلب مرائياً ولا مخادعاً.

فإذا رأيتم رياء في قلوبكم فاعلموا أن قلوبكم لم تسلم للعقل وأن الإيمان لم يقذف نوره فيها، وأنكم تحسبون في قلوبكم شخصاً آخر هو المؤثر في هذا العالم غير الحق تعالى فتكونون في زمرة المنافقين أو المشركين أو الكفار.

يبقى أن نشير إلى أن نور الإيمان إذا قوي حصل الاطمئنان في القلب، فالاطمئنان ليس هو العلم وإنما هو كمال الإيمان.

كيف نستأصل جذور الرياء:

نذكر هنا أمراً نأمل أن يكون مؤثراً في علاج هذا المرض القلبي، وهذا الأمر قد أشارت إليه آيات من القرآن الكريم والعديد من الروايات ودلت عليه الأدلة

العقلية واكتشفته القلوب البصيرة العارفة بالله تعالى. وهو:

إن الله تعالى قدرته محيطة بجميع الموجودات وسلطانه مبسوط على جميع الكائنات وقيمومته جارية على جميع المخلوقات، وقلوب الناس ليست مستثناة من ذلك، فالله تعالى هو القيّم والمسلّط والمحيط بقلوب الناس جميعاً.

ومادام تعالى هو القيم على قلوب الناس فلا يمكن للإنسان التصرف بها والتأثير فيها إلا بإذن الله تعالى، بل أن الإنسان غير قادر على التصرف حتى بقلبه هو بدون إذن من الله تعالى، وبهذا المعنى وردت كلمات ـ إشارة وكناية وصراحة ـ في القرآن الكريم وفي أخبار أهل البيت عليهم السلام.

إذا، فرياؤك وتملقك، إذا كانا لأجل جذب قلوب العباد ولفت نظرهم والحصول على المنزلة والتقدير في القلوب والاشتهار بالصلاح، فإن ذلك خارج عن تصرفك تماماً وهو تحت تصرف الله تعالى، فهو إله القلوب وصاحبها الذي يوجهها نحو من يشاء، بل من الممكن أن تحصل على نتيجة عكسية! وقد رأينا الكثير من الأشخاص المتملقين والمنافقين كيف افتضح أمرهم وبان زيفهم وحصلوا على عكس ما أرادوا الحصول عليه في نهاية الأمر!

وفي رواية عن أبي عبد الله عليه السلام يشرح قوله تعالى:

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾.

قال عليه السلام:

«الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله، إنما يطلب تزكية الناس يشتهي أن يسمع به الناس فهذا الذي أشرك بعبادة ربه. ثم قال: ما من عبد أسرّ خيراً فذهبت الأيام أبداً حتى يظهر الله له خيراً، وما من عبد أسرّ شراً فذهبت الأيام أبداً حتى يظهر الله له شراً».

إذاً أيها العزيز، أطلب السمعة والذكر الحسن من الله، والتمس قلوب الناس

من مالك القلوب، اعمل لله وحده وستجد أن الله تعالى ـ بالإضافة إلى الكرامات والنعم الأخروية ـ سيتفضل عليك في هذا العالم أيضاً بكرامات عديدة، فيجعلك محبوباً ويعظم مكانتك في القلوب ويجعلك مرفوع الرأس وجيهاً في كلتا الدارين.

ثم لو فرضنا أنك حصلت على قلوب الناس من خلال التملق والرياء، فماذا ستجني من حب الناس الضعاف لك، وما فائدة هذه الشهرة وهذا الصيت؟ وهم لا يملكون شيئاً من دون الله!

ثم لو فرضنا أن هناك فائدة من ذلك، فما هو مقدار هذه الفائدة وما هي قيمتها؟ إنما هي فائدة تافهة ولأيام معدودة، ومن الممكن أن يوصل الإنسان إلى الشرك والنفاق والكفر ـ لا سمح الله ـ وإن لم يفتضح في هذا العالم فسيفتضح في ذلك العالم في محضر العدل الرباني عند عباد الله الصالحين وأنبيائه العظام وملائكته المقربين ويهان ويصبح مسكيناً ذليلاً، إنها فضيحة وأي فضيحة ؟!إنه اليوم الذي يقول فيه الكافر ﴿**يا ليتني كنت تراباً**﴾! فمقابل هذه المحبة البسيطة وعديمة الفائدة بين العباد، خسرت تلك الكرامات وفقدت رضا الله وعرّضت نفسك لغضبه تعالى.

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام:

«قال النبي صلى الله عليه وآله: إن الملك ليصعد بعمل العبد مبتهجاً به فإذا صعد بحسناته يقول الله عز وجل: اجعلوها في سجّين، إنه ليس إياي أراد بها».

الله أعلم كيف ستكون صورة تلك الأعمال في سجين!

أسئلة الدرس

1 ـ أعطِ مثالاً على إظهار الأعمال الصالحة بنية إلهية صحيحة.

2 ـ أي نوع من الرياء يعتبر نفاقاً، وفي أي صورة؟

3 ـ ما الفرق بين الإيمان والعلم؟ أعطِ مثالاً عليه غير المذكور في الكتاب.

4 ـ كيف نستأصل جذور الرياء؟ (اختصر في ثلاثة سطور).

5 ـ هل الاطمئنان من مراتب العلم أم الإيمان؟

الدرس الحادي عشر

الرياء ـ ٢ ـ

في الحديث القدسي:

(يا ابن آدم خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي).

ثانياً: الرياء في الصفات الحميدة والأخلاق الحسنة :

الرياء في هذا الأمر وإن لم يكن بخطورة الرياء في أصول العقائد، إلا أنه قد يفضي إلى الكفر أيضاً ويوصل إليه، وبالتالي ستكون نتيجته بخطورة نتيجة الرياء في أصول الاعتقاد.

لقد أوضحنا فيما سبق أن الناس وإن كانوا جميعاً لهم صورة إنسانية ظاهرية في هذه الدنيا إلا أنهم في عالم الملكوت ستظهر صورهم الحقيقية وقد تكون غير إنسانية، وهذه الصور تابعة لقلوبهم وصفاتهم التي يتصفون بها، فالملكات الفاضلة ستشكل للإنسان صورته الإنسانية عندما يحشر معها، ما لم تتصرف النفس الأمارة بالسوء فيها. فمرحلة القلب والصفات والملكات القلبية مهمة جداً.

وما يهمنا أن نركزّ عليه الآن هو أن الإنسان قادر على ترويض نفسه وإلباس قلبه أي ثوب أراد سواء كان ثوب الصفات الفاضلة أو ثوب الصفات الرذيلة، ويمكن أن يروض نفسه برياضة شرعية صحيحة أو رياضة باطلة زائفة.

ونسأل هنا هذا السؤال:

ما هو المعيار الذي نميّز من خلاله الرياضة الصحيحة الشرعية عن الرياضة الباطلة الزائفة؟

والجواب: عن هذا السؤال سهل وبسيط، يتلخص بكلمة «خطى النفس وخطى الحق» فالإنسان الذي يتحرك بخطى النفس وكانت رياضته من أجل الحصول

على قوى النفس وقدرتها وتسلطها، فرياضته هذه باطلة وسلوكه سيوصله إلى سوء العاقبة، ومن أمثال هؤلاء تظهر الدعاوى الباطلة عادة.

أما إذا كان تحرك السالك بخطى الحق وكان باحثاً عن الله تعالى، فإن رياضته هذه حقّة وشرعية وسيأخذ الله تعالى بيده ويهديه كما تنص على ذلك الآية الشريفة ﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا...**﴾ وستكون نتيجة عمله السعادة فتسقط عنه الأنا ويزول عنه الغرور والعجب.

ومن المعلوم أن خطوات الشخص الذي يعرض أخلاقه الحسنة وملكاته الفاضلة على الناس ليلفت أنظارهم إليه هي خطوات النفس، وهو بالتالي أناني معجب بنفسه وعابد لها. فإذا فتحت العيون البرزخية لترون أنفسكم سترون صورة غير إنسانية وإنما هي صورة أحد الشياطين مثلاً.

وفي الحديث القدسي يقول الله تعالى:

(لا تسعني أرضي ولا سمائي، بل يسعني قلب عبدي المؤمن).

فليس هناك موجود يكون آية جمال المحبوب سوى قلب المؤمن، فالمتصرف في قلب المؤمن هو الله تعالى لا النفس، والمؤثر في وجوده هو المحبوب، فلا يكون قلب المؤمن متمرداً ولا تائهاً «قلب المؤمن بين إصبعي الرحمن يقلبه كيف يشاء».

خلق الله الإنسان لنفسه سبحانه:

في الحديث القدسي:

(يا ابن آدم خلقت الأشياء لأجلك وخلقتك لأجلي).

فالله تعالى اتخذ من قلبك منزلاً له، فأنت وقلبك من النواميس والحرمات الإلهية، والله تعالى غيور، فلا تهتك حرمته وناموسه إلى هذا الحد، ولا تدع الأيادي تمتد إلى حرمه وناموسه. احذر غيرة الله وإلا فضحك في هذا العالم بصورة لا تستطيع إصلاحها مهما حاولت.

أتهتك في قلبك وفي محضر الملائكة والأنبياء العظام ستر الناموس الإلهي

وتقدم الأخلاق الفاضلة ـ التي تخلّق بها الأولياء إلى الحق ـ إلى غير الحق؟ وتمنح قلبك لخصم الحق؟

كن حذراً من الحق تعالى فإنه لن يكتفي بهتكك في الآخرة وفضحك أمام الأنبياء العظام والملائكة المقربين بل سيفضحك في هذا العالم أيضاً ويبتليك بفضيحة لا يمكن تلافيها!

إن الحق تعالى ستار ولكنه غيور أيضاً، إنه أرحم الراحمين ولكنه أشد المعاقبين أيضاً،يستر ما لم تتجاوز الحد، فقد يؤدي عملك إلى تغليب الغيرة على الستر.

فعد إلى الله فإنه رحيم وهو يبحث عن ذريعة لإفاضة الرحمة عليك، وإذا توجهت إليه فإنه يستر بغفرانه معاصيك وعيوبك الماضية ويجعلك صاحب فضيلة ويظهر فيك الأخلاق الكريمة ويجعلك مرآة لصفاته تعالى.

فيا أيها العزيز، أنت أعرف بنفسك فاختر إما هذا وإما ذاك، فالله غني عنا وعن كل المخلوقات إنه غني عن إخلاصنا وإخلاص كل الموجودات.

ثالثاً ـ الرياء في المناسك والعبادات:

إن هذا النوع من الرياء هو الأكثر وجوداً والأوسع شيوعاً بين عامة الناس، لأن الناس ليسوا من أهل النوعين الأولين عموماً حتى يدخل الشيطان من تلك الأبواب، ولكنبما أن معظم الناس متعبدين وهم من أهل العبادات والمناسك الظاهرية، فيحاول أن يتلاعب الشيطان بهم من خلال هذا الأمر. كما أن مكائد النفس في هذه المرحلة أكثر.

فعلى الذين يملكون هذا الجانب فقط، ولا زاد لهم سوى زاد الأعمال، عليهم أن يكونوا حذرين كل الحذر لئلا يفقدوا ـ لا سمح الله ـ زادهم ويضيعوا طريقهم ويصبحوا من أهل جهنم.

الرياء أمر دقيق وخفي:

كثيراً ما يكون الشخص المرائي غافلاً عن كون الرياء قد تسرب إلى أعماله واستولى عليها، والسبب في ذلك يعود إلى أمرين:

الأول: إن مكائد الشيطان والنفس الأمارة من الدقة والخفاء، وصراط الإنسانية من الرهافة والظلمة إلى درجة لا يتنبه الإنسان إلى ما هو فيه إن لم يكن حذراً جداً.

الثاني: لما كان الإنسان مجبولاً على حب النفس فإن حجاب حب النفس يستر عنه معايب نفسه.

ولنذكر مثالاً على ذلك:

ـ إن طلب العلم ودراسة العلوم الدينية هي من الطاعات والعبادات المهمة، ولكن يمكن أن يتسلل الشيطان من خلال ذلك، فتجد الإنسان يرغب أن يتفرد في استيعاب معضلة علمية وحلها لدى محضر العلماء والرؤساء والفضلاء ويبتهج أكثر كلما كان توضيحه للمسألة العلمية أحسن، ولفت انتباه الحاضرين أكثر، وتراه يحب أن ينتصر على من يناظره. إنه يشعر بنوع من التفوق العلمي، وإذا اقترن ذلك بتأييد شخصية علمية لكان نور على نور!

إن هذا المسكين غافل عن أنه أحرز هنا موقعاً لدى الفضلاء والعلماء ولكنه سقط من عين ربهم وملكهم، وأن مصير عمله أصبح ـ بأمر الحق المتعالي ـ في سجين.

هذا الرياء الذي قد يمتزج بمعاصي أخرى أيضاً كفضح المؤمن وإيذاءه وإذلاله، وأحياناً التجرؤ على المؤمن وهتكه، وكل واحدة من هذه الأمور كافية لإدخال مرتكبها إلى جهنم.

فإذا اكتشفت أنك وقعت في الرياء تأتي النفس الأمارة لتلقي شباك كيدها فتقول: إن هدفي هو إعلان الحكم الشرعي وإظهار كلمة الحق وهو من أفضل الطاعات، وليس المقصود إظهار العلم وحب الظهور.

ولتبطل كيد نفسك اسألها:

لو كان زميلي المساوي لي في الدرجة العلمية هو الذي قال ذلك الحكم الشرعي وهو الذي حل تلك المعضلة العلمية وكنتِ أنتِ المغلوبة هنا، أكان على حد سواء عندكِ؟ إذن فاعلموا أنكم مراؤون وأن عملكم في سجين ـ بحسب الرواية ـ.

وهكذا سائر أعمالنا، فهي تحت تصرف الشيطان الملعون الذي ينزل في كل قلب كدر ملوث، ويحرق الأعمال الظاهرة والباطنة ويجعلنا من أهل النار عن طريق الأعمال الحسنة.

من علامات الرياء:

في جملة وصايا النبي ﷺ لعلي عليه السلام:

«ثلاث علامات للمرائي: ينشط إذا رأى الناس، ويكسل إذا كان وحده، ويحب أن يحمد في جميع أموره».

إن الرياء هو سيئة خفية تغيب حتى عن الإنسان نفسه، فيكون باطنه من أهل الرياء وهو يتوهم عمله خالصاً، ولهذا ذكروا للرياء علامات، وبواسطة العلامة يعرف الإنسان سريرته فيبادر لعلاجها.

والعلامة التي ذكرتها الرواية أن الإنسان يشاهد في نفسه عزوفاً عن العبادات عندما يكون لوحده، وإذا اشتغل بالعبادات في تلك الحالة يحس بالكلفة أو تكون مجرد عادة من دون توجه وإقبال، ولكن عندما يحضر في المساجد والمجامع وفي الأماكن العامة يؤدي تلك العبادة وظاهره مليء بالنشاطوالسرور وحضور القلب ويميل إلى إطالة الركوع والسجود ويؤدي المستحبات أيضاً بشكل حسن...

على الإنسان أن يسأل نفسه عن سبب هذا التفاوت بين الحالتين؟ ربما تأتي النفس الأمارة لتزين له وتموّه عليه قائلة: يشتد النشاط في المسجد وفي الجماعة لأنها أكثر استحباباً وأعظم ثواباً فبسبب شدة الاستحباب وعظم الثواب يزداد اهتمامك بها. وعندما ترى أنك حتى خارج المسجد وفي صلاة الفرادى تفعل ذلك

أمام الناس تأتي لتقول لك: يستحب أداء العمل أمام الناس بصورة حسنةلكي يقتدي به الآخرون ويرغبون بالدين! وهكذا تخدع النفس هذا الإنسان المسكين لتبعده عن المبادرة إلى العلاج.

إن النفس تظهر المعصية بصورة العبادة والتكبر والغرور على أنه ترويج للدين!

فيمكن للإنسان أن يسأل نفسه: إن الإتيان بالمستحبات في الخلوات مستحب فلماذا ترغب النفس بأدائها في العلن؟ لماذا تراه في ليالي القدر بين جموع الناس يبكي ويخشع ويصلي مائة ركعة ويقرأ دعاء الجوشن وأجزاء من القرآن المجيد دون أن يتلكأ أو يحس بالتعب؟ ولماذا يرغب بمدح الناس على كل عمل يعمله؟ فتجد أذنه متوجهة إلى ألسن الناس وقلبه عندهم، علّه يسمع كلمة: ما أشد تدين و التزام هذا الإنسان! إذا كان الله تعالى هو الهدف فما هذا الميل المفرط نحو الناس؟ انتبه فإن هذا الميل ليس بعيداً عن الرياء الخبيث، فاسعَ ما استطعت إلى إصلاح نفسك من أمثال تلك الميول ما دام الإصلاح ممكناً.

اختلاف مراتب الناس:

إن لكل واحدة من الصفات التي يتصف بها الإنسان ـ سواء كانت حسنة أو سيئة ـ درجات ومراتب وكذلك الرياء فله درجاته ومراتبه، ويختلف قبحها من شخص لآخر، فلرب مرتبة تعتبر نقصاً عند أولياء الله تعالى والعرفاء بالله لا تعتبر نقصاً عند غيرهم بل قد تكون بمعنى من المعاني كمالاً بالنسبة إليهم وهكذا تكون حسنات فئة سيئات لفئة أخرى.

فالإخلاص في جميع مراتب الرياء هو من مختصات أولياء الله، والآخرون لا يشاركوهم في هذه المرتبة، واتصاف الناس بدرجة من الإخلاص ليس نقصاً لهم بحسب المقام الذي هم فيه، ولا يضر بإيمانهم وإخلاصهم، فمثلاً تميل نفوس عامة الناس بحسب الغريزة والفطرة إلى أن تظهر خيراتها أمام الناس وإن لم يقصدوا أن يظهروها، ولكن نفوسهم مفطورة على هذا الميل. وهذا ليس موجباً

لبطلان العمل أو الشرك أو النفاق أو الكفر، وإن كانت هذه الحالة نفسها نقص عن الولي وشرك ونفاق بالنسبة للعارف بالله. ومرتبة الإخلاص في جميع المراتب والتنزه عن جميع أنواع الشرك هو أول مرتبة ومقام من مقامات الأولياء.

أسئلة الدرس

1 ـ ما هو المعيار الذي نميز من خلاله بين رياضة النفس الشرعية والرياضة الباطلة والزائفة؟

2 ـ ما السبب في الكون المرائي في كثير من الأحيان غافلاً عن كون الرياء قد تسرب إلى أعماله؟

3 ـ ما هي علامات الرياء؟

4 ـ إن نفوس الناس تميل بحسب الغريزة إلى إظهار خيراتها أمام الناس، من دون قصد لذلك، فهل يعتبر هذا الإظهار رياء وشركاً بالنسبة إليهم؟

5 ـ ما هو أول مرتبة ومقام من مقامات الأولياء؟

الدرس الثاني عشر:

الكبر ـ ١ ـ

بالسند المتصل عن حكيم قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أدنى الإلحاد، فقال: **«الكِبر أدناه»**.

ما هو الكِبر؟

الكبر هو عبارة عن حالة نفسية تجعل الإنسان يترفع ويتعالى على الآخرين، وتصرفات الإنسان هي التي تدل على وجود مثل هذه الحالة عنده.

والكبر هو من آثار العجب وتوابعه، والفرق بينهما أن العجب هو الإعجاب بالذات، بينما الكِبر هو التعالي والتعاظم على الناس. فعندما يتوهم الإنسان أنه يتملك أي صفة من صفات الكمال ستنتابه حالة هي مزيج من السرور والتمنن وغيرها، وهذه هي صفة العجب، ثم يرى أن الآخرين لا يملكون هذه الصفة التي يتوهمها في نفسه، فينتابه شعور آخر هو تصور التفوق والتقدم، وهذا يؤدي به إلى التعاظم والترفع، وهذه هي صفة الكِبر.

درجات الكبر من جهة الموضوع:

إن للكبر درجات تشبه الدرجات التي ذكرناها في العجب، وهي ستة:

1 ـ الكبر بسبب الإيمان والعقائد الحقة، ويقابله الكبر بسبب الكفر والعقائد الباطلة.

2 ـ الكبر بسبب التوجهات الفاضلة والصفات الحميدة، ويقابله الكبر بسبب الأخلاق الرذيلة والتوجهات القبيحة.

3 ـ الكبر بسبب العبادات والأعمال الصالحة، ويقابله الكبر بسبب المعاصي والأعمال السيئة.

وهذه الدرجات يمكن أن تكون وليدة مثيلتها من درجات العجب وأو وليدة سبب آخر ـ سوف تأتي الإشارة إليه ـ.

وهناك درجات أخرى للكبر غير هذه تكون بسبب أمور خارجية كالحسب والنسب والمال والجاه والرئاسة وغيرها.

درجات الكبر من جهة الواقع عليه:

إن للكبر من هذه الحيثية درجات أيضا:

1 ـ التكبر على الله تعالى، وهذه الدرجة أقبح الدرجات وأشدها هلكة، و كما يمكن أن تجدها بين أهل الكفر والجحود ومدعي الألوهية، كذلك يمكن أن تراها بين أهل الدين. وهذا التكبر هو منتهى الجهل، جهل بالممكن الفقير والمحتاج، وجهل بمقام واجب الوجود الغني والمعطي.

2 ـ التكبر على الأنبياء والرسل والأولياء صلوات الله عليهم. وكثيراً ما كان يحصل في زمن الأنبياء، قال تعالى على لسانهم: ﴿... **أنؤمن لبشر مثلنا** ... ﴾[1]. وقال تعالى على لسان آخرين: ﴿... **لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**﴾[2].

وفي صدر الإسلام وقع الكثير من التكبر على أولياء الله، وفي هذا الزمان أيضاً نجد نماذج منه في بعض المحسوبين على الإسلام.

3 ـ التكبر على أوامر الله تعالى، وهذا يرجع بحقيقته إلى التكبر على الله، وهو يظهر في بعض العاصين، كأن يمتنع أحدهم عن الحج لأنه لا يستسيغ مناسكه من إحرام وغيره، أو يترك الصلاة لأن السجود لا يليق بمقامه، وربما يظهر مثل هذا الكبر عند أهل النسك والعبادة وأهل العلم والتدين، كأن يترك الآذان تكبراً، أو لا يتقبل الكلام الحق إذا جاء ممن هو مثله أو دونه منزلة.

(1) المؤمنون آية/47.
(2) الزخرف آية/31.

فقد يسمع الإنسان قولاً من زميل له فيرده بشدة ويطعن في قائله، ولكنه إذا سمع ذلك القول نفسه من كبير في الدين أو الدنيا قَبله[1].

ومن هذا التكبر أيضاً من يترك تدريس علم أو كتاب باعتباره لا يليق به، أو يرفض تدريس أشخاص لا مركزية لهم. أو لأن عددهم قليل...حتى وإن علم أن في مثل تلك الجماعة رضا الحق تعالى.

4 ـ التكبر على عباد الله تعالى، وهذا أيضاً يرجع ـ بحسب نظر أهل المعرفة ـ إلى التكبر على الله، وأقبحه التكبر على العلماء بالله، ومفاسد التكبر عليهم أكثر وأخطر من أي شيء آخر. ويدخل في هذا التكبر أيضاً رفض مجالسة الفقراء، والتقدم في المجالس والمحافل وفي المشي والسلوك.

وهذا النوع من التكبر شائع بين الناس وشامل لجميع الطبقات، من أشراف وأعيان وعلماء ومحدثين وأغنياء بل حتى الفقراء والمعوزين، إلا من حفظ الله وسلّمه من ذلك.

دقة الطريق:

هناك فرق واضح بين التواضع الحسن والتملق القبيح، وبين الإباء الحسن والتكبر القبيح، ولكن في بعض الأحيان قد يصبح التمييز بين هذه الأمور على درجة كبيرة من الصعوبة على الإنسان فتختلط عليه هذه الأمور فيظن التملق تواضعاً والتكبر إباءً أو العكس. فلا بد للإنسان أن يتعوذ بالله ليهديه إلى طريق الهداية، وإذا تصدى الإنسان لإصلاح نفسه وتحرك نحو الهدف الصحيح، فإن الله تعالى سوف يشمله برحمته الواسعة وييسر له سبيل الهداية.

السبب الأساسي للتكبر:

هناك عدة عوامل ومبررات ـ على المستوى العلمي أو العملي أو غيرهما ـ قد

(1) إن ترك القبول له ناحيتان: إحداهما تكبر على أوامر الله، وثانيهما تكبر على عباد الله تعالى.

تدفع الإنسان إلى التكبر، ولكنها كلها ترجع إلى شيء واحد يمكن اعتباره السبب الحقيقي للتكبر، وهو: توهم الإنسان الكمال في نفسه مما يبعث على العجب الممزوج بحب الذات، فيحجب كمال الآخرين ويراهم أدنى منه، ويترفع عليهم قلبياً أو ظاهرياً.

وقد يحدث أحياناً أن صاحب الأخلاق الفاسدة والأعمال القبيحة يتكبر على غيره، ظاناً أن ما فيه ضرب من الكمال!

وآثار هذه الحالة قد تظهر في سلوك الإنسان بشكل واضح.

نماذج من آثار التكبر:

ولنستعرض بعض نماذج التكبر لما فيها من فائدة عملية في معرفة هذا المرض والاحتراز عنه:

- قد يتصور الإنسان نفسه من خواص الله المقربين وعباده المخلصين فيترفع على الآخرين ويتعاظم عليهم. ويرى أن الحكماء والفلاسفة سطحيين وأن الفقهاء والمحدثين لا يتجاوزون الظاهر في نظراتهم، وأن سائر الناس كالبهائم. فينظر إلى عباد الله بعين التحقير والازدراء، ويبدأ هذا المسكين بالكلام عن حب الله وعشقه والفناء فيه... مع أن المعارف الإلهية تقضي حسن الظن بالكائنات، فلو كان قد تذوق حلاوة المعرفة بالله لما تكبر على خلقه! لكن الحقيقة أن هذه المعارف لم تدخل قلبه، وأن هذا المسكين لم يبلغ حتى مقام الإيمان ولكنه يتشدق بأنه من خواص الله!

- إن بين الفلاسفة أيضاً أناساً يرون أنهم بما يملكون من براهين ومن علميمتازون عن غيرهم، فينظرون إلى سائر الناس بعين التحقير ولا يقيمون وزناً لعلم الآخرين، ويرون عباد الله جميعاً ناقصي علم وإيمان فيتكبرون عليهم في الباطن ويعاملونهم في الظاهر بكبرياء وغرور، مع أن العلم بفقر المخلوق، ومقام الخالق رب السماوات والأرض يقتضي غير ذلك، والحكيملا يمكنه إلا أن يكون

متواضعاً بعد معرفته بالمبدأ والمعاد. فهذا لقمان الحكيم يقول في جملة وصاياه لابنه:

﴿ولا تصعر خدك للناس ولا تمشِ في الأرض مرحاً، إن الله لا يحب كل مختالٍ فخور﴾[1].

إن الكبر منتشر بين علماء سائر العلوم الأخرى، في الطب والرياضيات والطبيعة، وكذلك أصحاب الصناعات الهامة، فكلٌ منهم يحسب أن ما عنده وحده هو العلم وما عند غيره ليس بعلم، فيتكبر على الناس بباطنه وظاهره.

ـ هناك من أهل النسك والعبادة من يتكبر على الناس أيضاً، ولا يعتبر الناس ـ حتى العلماء ـ من أهل النجاة، فإذا ذكر العلم قال: ما فائدة العلم بلا عمل؟ العمل هو الأساس، فينظر بعين الاحتقار إلى جميع الطبقات، مع أنه لو كان من أهل الإخلاص والعبادة ينبغي لعمله أن يصلحه. فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وهي معراج المؤمن، فصلاته تلك التي لم تنهه عن المنكر والتي تقربه من الشيطان والتكبر الذي هو من خواص الشيطان، ليست بصلاة، لأن الصلاة لا تستدعي ذلك.

ـ الذي يملك الحسب والنسب يتكبر على من لا يملكهما، وقد يتكبر صاحب الجمال على فاقده أو إذا كان كثير الأتباع والأنصار أو له تلامذة كثيرون وأمثال ذلك، فإنه يتعالى ويتكبر على الذي ليس له مثله. بل كما ذكرنا قد يحصل أحياناً أن يتكبر صاحب الأخلاق الفاسدة الأعمال القبيحة على غيره ظناً منه أن هذه القبائح هي كمالات.

يقول أحد المحققين: «**إن أدنى درجة الكبر في العالِم هي أن يدير وجهه عن الناس كأنه يعرض عنهم، وفي العابد هي أن يعبس في وجوه الناس ويقطب جبينه كأنه يتجنبهم أو أنه غاضب عليهم، غافلاً عن أن الورع ليس في تقطيب الجبين ولا في عبوس ملامح الوجه ولا في البعد**

(1) لقمان آية/18.

عن الناس والإعراض عنهم، ولا في لي الجِيد وطأطأة الرأس وملمة الأذيال، بل الورع يكون في القلب»، لقد قال رسول الله ﷺ: «ها هنا التقوى» وأشار إلى صدره.

قد تخفى الآثار:

إن المتكبر قد يمتنع أحياناً لسبب ما من إظهار التكبر علانية، فلا يُظهر أي أثر لذلك التكبر إلا أن هذه الشجرة الخبيثة تمد جذورها في قلبه، ولا بد من ظهور آثاره في الأوقات الحرجة عندما يخرج عن طوره الطبيعي بسبب الانفعال والغضب وغيره فإذا به تظهر عليه علامات التكبر، فيباهي الآخرين بما عنده من علم أو عمل أو أي شيء آخر ويفاخرهم به.

أسئلة الدرس

١ ـ ما هو سبب الكبر الأساسي؟
٢ ـ ما هي الأمور الخارجة عن الإنسان التي قد تتسبب بحصول الكبر عنده؟
٣ ـ ما هو أكبر درجات الكبر وأشدها هلكة؟
٤ ـ أذكر آية تدل على تكبر بعض الناس على الأنبياء.
٥ ـ الإنسان المتكبر في باطنه الذي يمتنع عن إظهار التكبر لسبب من الأسباب، في أي الأوقات تظهر آثار التكبر عليه؟

الدرس الثالث عشر

الكبر ـ ٢ ـ

عن الإمام الصادق عليه السلام:

«ما من عبد إلا وفي رأسه حكمة ومَلَك يمسكها فإذا تكبر قال له: اتّضع وضعك الله، فلا يزال أعظم الناس في نفسه وأصغر الناس في أعين الناس. وإذا تواضع رفعه الله عز وجل. ثم قال: انتعش نعشك الله، فلا يزال أصغر الناس في نفسه وأرفع الناس في أعين الناس»[1].

في مفاسد الكبر:

إن لهذه الصفة القبيحة بحد ذاتها مفاسد كثيرة، وهذه المفاسد تتمخض عنها مفاسد أخرى كثيرة. ونشير هنا إلى بعض تلك المفاسد:

ـ إن هذه الرذيلة تحول دون وصول الإنسان إلى الكمالات الظاهرية والباطينة، فهي تقف وسط الطريق لتقطع طريق الإنسان وتمنعه من الوصول إلى الكمالات الأخرى، وهي بالتالي تمنعه من الاستفادة والاستمتاع بالحظوظ والنعم الإلهية الدنيوية والأخروية. إن الكبر من أخلاق الشيطان الخاصة، فقد تكبر على أبيك آدم فطرد من حضرة الله، وأنت أيضاً مطرود لأنك تتكبر على كل الآدميين من أبناء آدم.

ـ تتسبب في انبعاث الحقد والعداوةفي نفوس الناس بدل الرحمة، والمجتمع الذي يحكمه الحقد والعداوة سيقع في مفاسد أكثر من أن تحصى.

ـ تحط من قدر الإنسان في أعين الخلق وتجعله تافهاً، فيبادره الناس بالمعاملة بالمثل تحقيراً له واستهانة به. كما جاء في الرواية السابقة عن الإمام الصادق عليه السلام:

«فلا يزال أعظم الناس في نفسه وأصغر الناس في أعين الناس»[2].

---

(1) أصول الكافي المجلد الثاني كتاب الإيمان والكفر باب الكبر حديث 16.

(2) المصدر نفسه.

إذا تكبرت على الناس لم تنل منهم شيئاً من الاحترام. بل لو استطاعوا أن يذلوك لأذلوك ولم يكترثوا بك، وإن لم يستطيعوا إذلالك، لكنت وضيعاً في قلوبهم وذليلاً في أعينهم ولا مقام لك عندهم. افتح قلوب الناس بالتواضع إذا أقبلت عليك القلوب ظهرت آثارها عليك وإن أدبرت تكون آثارها على خلاف ما تحب وترغب.

ـ إن هذه الرذيلة ستتسبب بالذل والمسكنة في الآخرة أيضاً، فكما أنك احتقرت الناس في هذا العالم وترفعت على عباد الله وتظاهرت أمامهم بالعظمة الجلال والعزة، كذلك تكون صورة هذا التكبر في الآخرة الهوان. عن أبي عبد الله عليه السلام:

إن المتكبرين يُجعلون في صور الذر يتوطّاهم الناس حتى يفرغ الله من الحساب»[1].

وجاء في وصايا الإمام الصادق عليه السلام لأصحابه:

«إياكم والعظمة والكبر، فإن الكبر رداء الله عز وجل فمن نازع الله رداءه قصمه الله وأذله يوم القيامة»[2].

ولا أعرف إذا أذل الله تعالى شخصاً ماذا يصنع به؟ وبماذا يبتليه؟ لأن أمور الآخرة تختلف عن أمور الدنيا كثيراً فإن الذل في الآخرة يختلف عن الذل في الدنيا، وكرامتها أسمى من تصورنا.

ـ بالإضافة إلى كل ما سبق لن يرى الجنة من كان في قلبه كبراً، كما روي عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله:

«لن يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر»[3].

وستكون عاقبة أمره إلى النار، ففي الحديث عن الإمام أبي جعفر محمد الباقر عليه السلام:

«الكبر مطايا النار»[4].

---

(1) أصول الكافي المجلد الثاني كتاب الإيمان والكفر باب الكبر حديث 11.

(2) وسائل الشيعة، المجلد 11، أبواب جهاد النفس، باب تحريم الكبر، الحديث 9.

(3) نفس المصدر، الحديث 6.

(4) نفس المصدر، الحديث 14.

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام:

«العز رداء الله، والكبر إزاره، فمن تناول شيئاً منه أكبه الله في جهنم»[1].

وما أدراك ما جهنم التي أعدها الله للمتكبرين. فهي غير جهنم التي أعدت لسائر الناس، ويكفي أن نورد هنا الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إن في جهنم لوادياً للمتكبرين يقال له (سقر)، شكى إلى الله عز وجل شدة حرّه وسأله أن يأذن له أن يتنفس فتنفس فأحرق جهنم»[2].

أعوذ بالله من مكان تحترق جهنم بتنفسه.

التفاوت بين عذاب الدنيا والآخرة:

إننا لا نستطيع أن ندرك شدة حرارة نار الآخرة في هذا العالم، إذ أن أسباب شدة العذاب وضعفه تختلف بين الدنيا والآخرة من جهات خمسة:

أولاً: تتبع قوة الإدراك وضعفه إذ كلما كان الإدراك أتم وأنقى كان إدراك الألم والعذاب أكثر. وجميع إدراكاتنا في هذه الدنيا ناقصة وضعيفة ومحجوبة بحجب كثيرة، إن أعيننا لا ترى اليوم الملائكة ولا جهنم وآذاننا لا تسمع الأصوات العجيبة والغريبة التي تصدر من البرزخ وأصحابه ومن القيامة وأهلها، وحواسنا لا تحس بحرارة ذلك المكان. كل ذلك لأنها ناقصة، إن الآيات والأخبار الواردة عن أهل البيت صلوات الله عليهم تؤكد على هذا الأمر تلويحاً وتصريحاً.

ثانياً: تعتمد على اختلاف الأجسام في تقبل الحرارة ومكوثها في النار، فالذهب والحديد ـ مثلاً ـ يتقبلان الحرارة أكثر من الرصاص والقصدير، وهذان يتقبلانها أكثر من الخشب والفحم، وهذان أكثر من الجلد واللحم.

إن جسم الإنسان في هذا العالم لا يتحمل الحرارة فإنه إن بقي ساعة واحدة

(1) نفس المصدر، الحديث 2.
(2) وسائل الشيعة، المجلد 11، أبواب جهاد النفس، باب تحريم الكبر، الحديث 6.

في نار هذه الدنيا ـ التي تعتبر باردة بالقياس إلى نار الآخرة ـ لاستحال إلى رماد، وبالتالي لن يبقى في العذاب، بينما الله القادر يجعل الجسم قابلاً للبقاء في نار جهنم دون أن يذوب ليذوق العذاب، هذه النار التي شهد جبرائيل بأنه لو جيء بحلقة واحدة من سلاسل جهنم التي طول الواحدة منها سبعون ذراعاً إلى هذه الدنيا لأذابت جميع الجبال من شدة حرارتها.

ثالثاً: إن مستوى ارتباط قوة الإدراك بالموضع المتعرض للحرارة له أثر كبيرة في شدة العذاب وضعفه، فالمخ مثلاً سيكون تأثره بالحرارة أشد من العظام، لأن قوة الإدراك والإحساس فيه أكبر.

إن ارتباط النفس بالجسد في هذه الدنيا ضعيف وناقص، ففي هذا العالم يستعصي على النفس أن تظهر فيه بكامل قواها، وأما الآخرة فهي عالم ظهور النفس، ويكون ارتباطها بالجسد هناك أتم مراتب النسبة والإرتباط كما هو ثابت في محله.

رابعاً: إن للحرارة نفسها من حيث كمالها ونقصانها دوراً في الشدة والضعف، فالحرارة التي تصل إلى مائة درجة تؤلم أكثر من الحرارة التي تصل إلى درجة خمسين.

إن نار هذه الدنيا نار باردة عرضية تحتاج لمادة تقوم بها ومشوبة بمواد خارجية غير خالصة. أما نار جهنم فنار خالصة لاتشوبها شائبة، قائمة بذاتها ذو إرادة تحرق بإدراك وإرادة وتشدد العذاب بقدر الإمكان والقرآن الكريم والأخبار الشريفة مليئة بوصفها.

خامساً: إن مدى ارتباط الحرارة المحرقة بالجسم وتمكنها منه له تأثيره في تخفيف العذاب و تشديده. فإذا كانت النار قريبة من اليد كان الإحتراق أخف مما إذا التصقت النار باليد.

إن ارتباط نار جهنم والتصاقها بالجسم لا شبيه له في هذا العالم، ولو تجمعت جميع نيران العالم وأحاطت بإنسان لما أحاطت بغير سطح جسمه. أما نار جهنم،

فتحيط بالظاهر والباطن، إنها تحرق القلب والروح والقوى، وتتحد بها بنحو لا نظير له في هذا العالم.

فيتبين مما ذكر أن هذا العالم لا تتوافر فيه وسائل العذاب بأي شكل من الأشكال، فلا أجسامه جديرة بالتقبل، ولا مصادره الحرارية تامة القوة، ولا الإدراك تام. إن النار التي تستطيع أن تحرق جهنم بنفس منها لا يمكن أن نتصورها ولا أن ندركها، إلا إذا كنا ـ لا سمح الله ـ من المتكبرين، انتقلنا من هذا العالم إلى الآخرة قبل أن نظهر أنفسنا من هذا الخُلق القبيح، فإننا سنراها حينئذٍ رأي العين ﴿**فلبئس مثوى المتكبرين**﴾[1].

العوامل المساعدة على التكبر:

هناك عدة عوامل توصل الإنسان إلى التكبر، فمن هذه العوامل:

1 ـ الجهل وصغر العقل، حيث تشتبه الأمور عليه فيرى النقص كمالا.

2 ـ ضعف القابلية وعدم الإستعداد للإستفادة من العطاءات الإلهية، وتلقيها بالشكل الخاطئ.

3 ـ ضعة نفس الإنسان وضعفها، التي تدفع الإنسان لإظهار التكبر والعلو لتخبئ ضعفها خلفه، فيمكن أن يتكبر الفقير على الغني والجاهل على العالم، فكما كان العجب مدخلاً للتكبر فالحسد أيضاً يمكن أن يكون مدخلاً له.

4 ـ قلة الصبر، الذي يتسبب بوقوع الإنسان بردات الفعل غير الملائمة عند الإبتلاء والإمتحان.

وسينتج عن ذلك كله ضيق أفق، ما أن يجد في نفسه خصلة مميزة حتى يتصور لها مقاماً ومركزاً خاصاً، ولكنه لو نظر بعين العدل والإنصاف إلى كل أمر يتقنه وكل خصلة يتميز بها لأدرك أن ما تصوره كمالاً يفتخر به ويتكبر بسببه، إما أنه ليس كمالاً أصلاً، وإما أنه إذا كان كمالاً فإنه لا يكاد يساوي شيئاً إزاء كمالات

(1) سورة النحل، آية 28.

الآخرين. فهو كمن صفع وجهه ليحسب الناس احمرار وجهه نتيجة النشاط والحيوية، وكما قيل «استسمن ذا ورم».

كيف نعالج الكبر:

هناك عدة أمور يمكن اعتبارها كعوامل تساعد على علاج النفس:

- إن التفكر فيما ذكرنا من مفاسد الكبر وخطورته وعاقبة المتكبرين، كافٍ لإيقاظ النفس وتنبيهها وابعادها عن هذه الصفات الرذيلة.

- عليك أن تمسح عن نفسك عار الجهل والانحطاط، وتتصف بصفات الأنبياء وتبتعد عن صفات الشيطان، وتعلم أن التكبر ليس كمالاً، فهذا النبي الأكرم ﷺ الذي كان علمه من الوحي الإلهي، والذي وضع جميع العادات الجاهلية تحت قدميه ونسخ جميع الكتب واختتم النبوة، كان يكره أن يقوم له أصحابه احتراماً وإذا دخل مجلس لم يتصدر، ويتناول الطعام جالساً على الأرض قائلاً: «إنني عبد آكل مثل العبيد وأجلس مجلس العبيد»، كان يعطي الفقراء بكلتا يديه ويشترك في أعمال المنزل ويحتلب الأغنام ويرقع ثيابه ويخصف نعله بيده... مع أنه بالإضافة إلى مقامه المعنوي كان في أكمل حالات الرئاسة الظاهرية.

- مع شيء من المثابرة سيكون طريق إصلاح نفسك ـ إذا عزمت ـ أمراً سهلاً، ولو اتصفت بهمة الرجال وحرية الفكر عن الأهواء وعلو النظر، فلن تصادفك أي مخاطر.

- اعمل على خلاف هوى نفسك، فإذا رغبت نفسك بأن تتصدر المجلس متقدماً على أقرانك فخالفها واعمل عكس ما ترغب فيه، وإذا كان تأنف عن مجالسة الفقراء والمساكين فمرغ أنفها في التراب وجالسهم وآكلهم ورافقهم في السفر ومازحهم، قد تقول لك النفس: «إن لك مقاماً ومنزلة وعليك أن تحافظ عليها من أجل ترويج الشريعة، ومجالستك الفقراء تذهب بمنزلتك، والمزاح مع من هو دونك يقلل من هيبتك، فلا تقدر أن تؤدي واجبك الشرعي على أكمل وجه»، أعلم أن

هذه كلها من مكائد الشيطان والنفس الأمارة، فلم تكن تلك سيرة النبي ﷺ وهو من حيث المركز والرئاسة أرفع منك. بل سيرة فقهائنا ومراجعنا العظام أيضاً كانت قائمة على التواضع رغم ما لهم من مركز، كالفقيه الشيخ عبد الكريم الحائري صاحب السيرة العجيبة، حيث كان يرافق الخدم في السفر ويؤاكلهم ويفترش الأرض ويمازح صغار الطلبة وأواخر حياته كان يخرج بعد المغرب يتمشى في الشارع وقد لفّ رأسه بقطعة قماش بسيطة متنعلاً حذاءً بسيطاً من دون اهتمام بالمظهر. وكان هذا يزيد من وقعه في القلوب من دون أن تصاب هيبته بأي اهتزاز أو وهن.

أسئلة الدرس

1 ـ أذكر أثراً من آثار التكبر الدنيوية مع شرحه بأسلوبك الخاص.

2 ـ لماذا يعتبر الجسم الذي يتقبل الحرارة أكثر قابل للعذاب أكثر؟

3 ـ أيهما أقوى: ارتباط النفس بالجسد في الدنيا أم ارتباطها به في الآخرة؟

4 ـ لماذا اعتبر ضعف القابلية من العوامل المساعدة على الكبر؟ إشرح ذلك.

5 ـ هل التواضع يرفع الإنسان أم يضعه؟ أذكر نموذجاً من سيرة مراجعنا العظام قدس سرهم.

الدرس الرابع عشر

الحسد -١-

عن الإمام الصادق عليه السلام:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال الله عز وجل لموسى بن عمران: يا ابن عمران لا تحسدنّ الناس على ما آتيتهم من فضلي ولا تمدن عينيك إلى ذلك ولا تُتْبِعه نفسك، فإن الحاسد ساخطلنعمي صاد لقِسْمي الذي قسمت بين عبادي ومن يك ذلك فلست منه وليس مني».

معنى الحسد:

الحسد حالة نفسية يتمنى صاحبها سلب الكمال والنعمة التي يتصورهماعند الآخرين. سواء كان عنده مثلها أو لا، وسواء أرادها لنفسه أم لم يردها.

وإنما ذكرنا أنها نعمة «يتصورها» عند الآخرين لأن الإنسان كثيراً ما يقع في الوهم ويظن النقمة نعمة والنقصان كمال. وكثيراً ما يتمنى أمراً يظنه نعمة وهو نقمة ويطلب أمراً يظنه كمال وهو نقص. بل إن بعض الخصل تعد نقصاً للإنسان وكمالاً للحيوان ويكون الحاسد في مرتبة الحيوانية فيراها كمالاً ويتمنى زوالها، كفتك الدماء مثلاً الذي تعتبره بعض الناس موهبة عظيمة! فإذا شاهدوا من هو كذلك حسدوه. أو قد يحسبون بذاءة اللسان من الكمالات فيحسدون صاحبها!

إذاً فالذي يرى في الآخرين نعمة، حقيقة كانت أو موهومة، ويتمنى زوالها، يعد حسداً.

الفرق بين الحسد والغبطة:

الحسد هو ما ذكرناه من تمنى زوال النعم المتصورة عند الآخرين، وهو غير الغبطة، لأن الغبطة هي أن يتمنى الإنسان الحصول على هذه النعم التي رآها عند

الغير ولكنه لا يتمنى زوالها عن الآخرين. فمجرد تمني الحصول على النعم لا يعتبر حسداً على الإطلاق، ما لم يتضمن تمني زوال النعم عن الغير.

ما هي أسباب الحسد:

ذكر العلامة المجلسي قدس سره[1] أسباب الحسد في سبعة أمور:

الأول ـ العداوة.

الثاني ـ التعزز: فهو يعتقد أن الآخرين سيتكبرون عليه من خلال النعم المتوفرة عندهم، وهو لا يطيق ذلك لعزة نفسه.

الثالث ـ الكبر: فهو بطبيعته يتكبر على الناس، وحصول النعم عند غيره سيحد من تكبره عليهم.

الرابع ـ التعجب: فيتعجب من فوز هؤلاء الناس بمثل هذه النعم التي يعتبرها عظيمة كما أخبر تعالى عن الأمم الماضية ﴿**ما أنتم إلا بشر مثلنا**﴾، فتعجبوا أن فاز الأنبياء برتبة الرسالة والوحي والقرب مع أنهم بشر مثلهم فحسدوهم.

الخامس ـ الخوف: فوجود النعم بيد غيره سيجعله خائفاً على طموحاته الخاصة من هذا الشخص الذي قد يزاحمه بسبب ما بيده من نعم.

السادس ـ حب الرئاسة: هذه الرئاسة التي تنبني على امتيازات ونعم تتحقق عنده دون غيره.

السابع ـ خبث الطينة: فلا يكون هناك سبب من هذه الأسباب، ولكن لخبث النفس وشحها بالخير لعباد الله.

ما ذكره العلامة المجلسي صحيح ولكن كله يرجع إلى سبب واحد هو الأساس لكل حسد يمكن أن يقع فيه الإنسان، وهو «رؤية ذل النفس»، فإن الإنسان عندما يلاحظ وجود الكمال في غيره تنتابه حالة من الذل والانكسار، وسينتج عن هذه الحالة الحسد حتماً إذا لم يكن قد أدب الإنسان نفسه أو لم يكن هناك موانع أخرى.

(1) بحار الأنوار، المجلد الثالث والسبعون، صفحة 240.

مفاسد الحسد:

إن الحسد بنفسه ـ بصرف النظر عن آثاره ومفاسده الأخرى ـ هو أحد الأمراض القلبية المهلكة، فكيف إذا لاحظنا آثاره ومفاسده الأخرى!

فهناك الكثير من الأمراض القلبية الأخرى التي تنتج عنه كالكبر وإحباط الأعمال، وكل واحدة منها تكفي لهلاك الإنسان.

وسنكتفي من المفاسد بذكر ما نقل عن الصادق المصدق عليه السلام:

«آفة الدين الحسد والعجب والفخر».

وفي رواية عن أبي جعفر عليه السلام:

«إن الرجل ليأتي بأي بادرة فيكفّر، وإن الحسد ليأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب».

إن الإيمان هو نور إلهي إذا دخل قلب الإنسان جعله مكان تجليات وفيض الحق جل جلاله، كما جاء في الأحاديث القدسية:

«لا يسعني أرضي ولا سمائي بل يسعني قلب عبدي المؤمن»[1].

فهذا النور الإلهي الذي يجعل القلب أوسع الموجودات تأتي رذيلة الحسد لتجعل مكان الوسعة ضيقاً ومكان النور ظلاماً، ويؤثر ذلك على كل كيان الإنسان باطنه وظاهره، فتصيب القلب بالحزن والكدر، والصدر بالاختناق والضيق، والوجه بالعبوس والغضب، وكلما اشتدت ازداد ضعف الإيمان حتى تصل إلى مرحلة تطفئ نور الإيمان و تميت قلب الإنسان، وسنذكر نبذة عن هذه المفاسد:

ـ لقد جاء في الحديث الشريف:

إن المؤمن لا يتمنى السوء للمؤمنين، بل هم أعزاء عنده. والحسود بعكس ذلك.

ـ المؤمن لا يغلبه حب الدنيا، والحسود إنما هو مبتلى بشدة حبه للدنيا.

---

(1) إحياء العلوم المجلد الثالث صفحة 12، غوالي اللئالي المجلد الرابع صفحة 7، إتحاف السادة المتقين المجلد السابع صفحة 234.

ـ المؤمن لا يداخله خوف ولا حزن إلا من بارئ الخلق تعالى، أما الحسود فخوفه وحزنه يدوران حول المحسود.

ـ المؤمن طلق المحيّا، وبشراه في وجهه، والحسود مقطب الجبين عبوس الوجه.

ـ المؤمن متواضعوالحسود متكبر في معظم الحالات.

ـ من المفاسد الكبيرة التي لا تنفك عن الحسد أن المؤمن يحسن الظن بالله تعالى، وهو راضٍ بقسمه الذي يقسمه بين عباده. أما الحسود فساخط على الله تعالى ولي نعمته، يشيح بوجهه عن تقديراته.

فالحسد إذا هو آفة الإيمان التي تأكله كما تأكل النار الحطب!

آثار الحسد:

إن انشغالنا في هذه الدنيا قد أعمى أعيننا وأصم آذاننا فلا ندري أننا غاضبون تجاه خالق الخلق معرضون عنه، ولا نعلم هذا الغضب والإعراض بأي صورة سيظهر لنا في مسكننا الدائم في تلك الدار! إن ضيق القلب وكدره الذي سببه الحسد سيتسبب بضيق القبر وظلمته! فإن ضيق القبر أو اتساعه منوط بضيق الصدر أو انشراحه كما ذكر العلماء.

فعن رسول الله ﷺ عندما خرج في جنازة سعد وقد شيعه سبعون ألف ملك، فرفع رسول الله ﷺ رأسه إلى السماء ثم قال: مثل سعد يضم؟ قال: قلت جعلت فداك أنا نحدث إنه كان يستخف بالبول. فقال ﷺ:

«معاذ الله، إنما كان من زعارة في خلقه على أهله»[1].

إن الضيق والضغط والكدر والظلام الذي يحصل في القلب بسبب الحسد قلما يوجد في خلق فاسد آخر. فصاحب هذا الخلق يعيش في الدنيا معذباً مبتلى ويكون له في القبر ضيق وظلمة.

(1) فروع الكافي المجلد الثالث باب المسألة في القبر حديث 6 صفحة 236.

وأما في الآخرة فسيحشر مسكيناً متألماً، يكفي الحديث القدسي المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**من يكُ كذلك فلست منه وليس مني**»، ولا نفهم ماذا يحمل لنا تبرؤ الحق تعالى منا وإعراضه عنا من مصائب عليه السلام أن من يخرج عن ولاية الله ويطرد من ظل رحمته لن يكون له أمل في النجاة، ولن تشمله شفاعة الشافعين ﴿**من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه**﴾ من سيتقدم ليشفع لمن يسخط عليه الله وخرج من حصن ولايته! لم يزل الأنبياء والأولياء يصرخون في آذاننا ليوقظونا من النوم ولكننا نزداد غفلة وشقاءً يوماً بعد يوم!

هذه هي مفاسد الحسد نفسه دون المفاسد الخلقية الأخرى التي تترتب عليه، ودون الأعمال الباطلة التي يمكن أن يلجأ إليها الإنسان نتيجة الحسد.

أسئلة الدرس

1 ـ عرف كلاً من الحسد والغبطة واستنتج الفرق بينهما.

2 ـ ما علاقة التكبر بالحسد؟

3 ـ ما أثر الحسد على قلب الإنسان؟

4 ـ عدد خمس أمور من أسباب الحسد

5 ـ ما أثر الحسد على قبر الحسود بعد الموت، ومن أين يأتي هذا الأثر؟

الدرس الخامس عشر

الحسد ـ ٢ ـ

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾

﴿وَالْكَاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِيْنَ﴾

في الحديث القدسي:

«إن الحسود يشيح بوجهه عما قسمته بين العباد، وهو ساخط على نعمي».

هل يحقق الحسود أهدافه؟

يجب أن تعلم أن حسدك لا يضر المحسود، فلن تزول عنه النعمة لمجرد أنك تحسده،بل على العكس تماماًسيستفيد نتيجة حسدك في الدنيا والآخرة.

سيستفيد في الدنيا لأنك عدوه وحاسده، فشقاؤك وحزنك سيعد نفعاً له، فعذابك وأنت عدوه هو نعمة بالنسبة إليه، وإذا التفت إلى هذا الموضوع سيزداد عذابك وتألمك وفي ذلك نعمة جديدة له أيضا وهكذا ..وعليه فإنك ستكون دائماً في عذاب وشقاء وتعاسة وغم، وهو في نعمة وسرور وانبساط.

وسيستفيد في الآخرة أيضاً، خصوصاً إذا كان الحسد قد دفع بك إلى الغيبة والافتراء وسائر الرذائل، مما يستوجب أخذ حسناتك وإعطائها له، فتصبح أنت مفلساً في الآخرة، ويزداد هو نعمة وعظمة.

لو أنك فكرت في هذه الأمور وعرفت عاقبة الحسد لأقدمت على تطهير نفسك من هذه الرذيلة وأنقذت نفسك من هذه الهلكة. وما دام الإنسان في هذا العالم فهو قادر على الإصلاح فلا تجعلك نفسك تيأس من الإصلاح وبادر إليه فهو اسهل مما تصوره لك هذه النفس الأمارة.

أسرع إلى الإصلاح فإن المنع من تسرب الأخلاق الفاسدة إلى نفسك أيسر من إخراجها منها، وإذا تسربت فإنك كلما أخرت التصدي لإخراجها ازدادت جذورها

وازداد الجهد المطلوب منك للتطهير وضعفت قواك الداخلية، وعلى كل حال فعليك أن تبذل كل جهد لاقتلاع تلك الجذور قبل أن تصل إلى مرحلة اللاعودة في البرزخ والآخرة.

إن الصفات النفسية والأخلاقية في ذلك العالم تكون قوية إلى درجة أن زوالها إما أن يكون غير ممكن على الإطلاق، فيكون صاحبها مخلداً في النار، وإما إذا أمكن إزالتها بالمشاق والضغوطات والنيران فإن ذلك قد يحدث ولكن بعد قرون حسابها إلهي لا كحسابنا نحن!

فما دمت قادراً على الإصلاح في شهر أو سنة مع القليل من التعب الدنيوي لا تهمله وتؤجله لكيلا يوردك موارد الهلاك.

جذور الحسد:

ذكرنا فيما سبق أن العلم محله العقل، وأما الإيمان فمحله القلب، وجميع المفاسد الأخلاقية والعملية سببها أن العلم الذي أدركه العقل عن طريق الدليل والبرهان والأخبار لم يتجاوزه ليصل إلى القلب، فبقي القلب غافلاً عن الإيمان لا يعرف عنه شيئاً:

- **الحسود لا يؤمن بالحكمة الإلهية:** ومن بين المعارف التي يعتقد بها الحكماء والمتكلمون وعامة الناس الذين يتبعون الشرائع هو أن ما كتبه الحكيم المطلق جلت قدرته، من الوجود والكمال وبسط النعمة وتقسيم الآجال والأرزاق جاء على خير تقدير وأجمل نظام. وهو يناسب تماماً المصالح التامة ويعطي نظاماً مثالياً كاملاً. وكلُ فرد منهم يعبر عن هذه الحقيقة بتعبيراته الخاصة.

فالعارف يقول: ظل الجميل جميل على الإطلاق.

والفيلسوف يقول: إن هذا الوجود خال من النقص والشرور، وما نتصور نحن أنه شر هو في الحقيقة طريق يوصل الكائنات إلى الكمالات المناسبة لها.

والمتكلم وأهل الشرائع يقولون: أفعال الحكيم لا تكون إلا حكيمة وصالحة،

والعقول المحدودة هي العاجزة والقاصرة عن إدراك المصلحة والحكمة.

وكل واحد منهم يستدل بالأدلة والبراهين التي تتناسب مع مدى سعة عقله وعلمه.

ولكن بما أن الأمر لم يتعد الأقوال والعقول إلى القلوب، فإن ألسنة الاعتراض على الله تعالى تبقى مطلقة وهذا القلب الذي لم يخالطه الإيمان بعد سيفند البرهان ويكذّب اللسان. وعلى هذا الأساس تكون المفاسد الأخلاقية.

إن الذي يحسد الناس ويحقد في قلبه على أصحاب النعم ويتمنى وزوال النعمة عنهم، مشكلته الأساسية أنه لم يصل إلى مرحلة الإيمان بأن الله يفعل الأصلح للعباد.

ـ الحسود لا يؤمن بالعدل الإلهي: إن من الفطرة الإلهية الكامنة في أعماق البشر حب العدل والرضى به، وكراهة الظلم وعدم الاستسلام له، فالقلب يخضع بالفطرة للقسمة العادلة وينفر بالفطرة من الجور، فإذا سخط على النعمة وأعرض عن القسمة فذلك لأنه لا يرى ذلك عدلاً،

بل يراه ـ والعياذ بالله ـ جوراً، مع أنك في أصول العقائد تقول أن الله عادل. إن الحسد يناقض الإيمان بالعدل، فلو كنت ترى الله عادلاً لرأيت تقسيمه عادلاً أيضاً. وقد جاء في الحديث القدسي:

«إن الحسود يشيح بوجهه عما قسمته بين العباد، وهو ساخط على نعمي».

ما هو العلاج العملي للحسد:

حتى تستطيع أن تواجه هذه الرذيلة وتعالج هذا المرض الذي ابتليت به، عليك أن لا تجاري هذه النفس ولا تتبع خطواتها، من إظهار البغض للمحسود، إن نفسك تدعوك لإيذائه واعتباره عدواً وتكشف لك عن مساوئه ومفاسده وتركز عليها.

يجب أن تقوم بعكس ذلك تماماً لكسر هذه النفس، فتظهر المحبة له وتترحم عليه وتجله وتحترمه، واحمل لسانك على أن يذكر محاسنه، واعرض أعماله

الصالحة على نفسك وعلى الآخرين، وتذكر صفاته الجميلة.

صحيح أن هذا السلوك سيكون تكلفاً في بادئ الأمر ومن باب المجاز لا الحقيقة، ولكن بشكل تدريجي ستقترب نفسك من الحقيقة ويخف تكلفك شيئاً فشيئاً وترجع نفسك إلى حاله الطبيعي وتحقق هدفك في إصلاح النفس وإزالة هذه المنقصة والرذيلة.

وليعلم أنه إذا اتخذ طريق المحبة فإنه سرعان ما يكون موفقاً لأن نور المحبة قاهر للظلمة ومزيل للكدر.

قل لنفسك: على الأقل إن هذا الإنسان عبد من عباد الله، ولعل الله نظر إليه نظرة لطف فأنعم عليه بما أنعم، فخصه دون غيره بها.

خصوصاً إذا كان المحسود من رجال العلم والدين، وكان محسوداً على علمه ودينه، فإن هذا الحسد يكون أقبح، ومعاداة أمثال هؤلاء أسوء عاقبة، ولا بد من تفهيم النفس أن هؤلاء هم من عباد الله المخلصين الذي شملهم توفيق منه ووهبهم هذه النعم العظيمة، فهم أهل للمحبة والاحترام والخضوع لهم. فإذا رأى نفسه على خلاف ذلك فعليه أن يعلم أن الشقاء قد اكتنفه من كل جانب وأن الظلام قد أحاط بباطنه، فعليه أن يبادر إلى إصلاح نفسه.

الحسد الذي لم يظهر:

ورد في بعض الأحاديث الشريفة عن النبي ﷺ ما مضمونه:

«إن الله رفع عن أمتي تسع... ومنها الحسد إذا لم يظهر من خلال يده أو لسانه».

قد يتصور القارئ في بداية الأمر أنه لا مشكلة ولا عيب من الحسد الذي لم يترتب عليه آثار عملية تظهر من خلال يد الإنسان أو لسانه، ولكن هذا التصور خاطئ.

لربما يرفع هذا الحديث العقاب المباشر على هذا الشعور، ولكنه لا يرفع آثار

هذا الشعور داخل الإنسان، تلك الآثار الخطيرة جداً التي تحدثت عنها الروايات. فيكفي أن الحسد نار تحرق الإيمان، وأن الله تعالى بريئ من الحسود وأنه مطرود من حضرته، وغيرها من المفاسد التي ذكرناها قبل ذلك.

فيجب أن لا يحول مثل هذا الحديث الشريف دون المساعي الجادة لقلع هذه الشجرة الخبيثة من النفس، ولا يمنع المبادرة لتطهير الروح من نيرانها، هذه النيران التي ستقضي عليه، لأنه يندر أن تدخل هذه الرذيلة المفسدة إلى نفس إنسان ولا تتسبب بالمفاسد المختلفة، أو أن تدخل ولا يظهر لها أثر باليد أو اللسان، ويبقى الإنسان محافظاً على إيمانه.

رواية أخرى: في رواية عن الإمام الصادق عليه السلام:

«ثلاثة لم ينجُ منها نبي فمن دونه: التفكر في الوسوسة في الخلق، والطيرة، والحسد إلا أن المؤمن لا يستعمل حسده»[1].

فهذا الحديث يذكر أنه لم ينجُ أحد من الحسد في الباطن، والميزان فقط في استعماله أو عدم استعماله. فلربما يظن القارئ أنه لا مشكلة من وجوده في الباطن. ولكن هذا الفهم غير صحيح.

وهذا الحديث المقصود منه أحد الأمور التالية:

- إما أن يكون من باب المبالغة في التعبير ليشير إلى كثرة المبتلين بهذا المرض.
- أو من باب الكناية دون أن يكون المقصود مضمون الكلام بذاته.
- أو أنه أعطى للحسد معنى أوسع يشمل الغبطة أيضاً.
- أو أنه يقصد بالحسد تمني زوال بعض النعم المستعملة لدى الكفار في ترويج مذهبهم الباطل.

إن الأنبياء والأولياء مطهرون من الحسد بمعناه الحقيقي. والقلب الملوث بالمساوئ الأخلاقية والقذارات الباطنية لا يمكن أن يكون محل الوحي والإلهام. فلا بد أن يفسر هذا الحديث بحسب ما ذكر أو بتفسير آخر، أو يرد علمه إلى قائله صلوات الله عليه.

(1) وسائل الشيعة، المجلد 11، أبواب جهاد النفس، باب تحريم الحسد، ح 8.

أسئلة الدرس

1 ـ لمن يتوجه الضرر الأساسي في الحسد؟ وكيف ذلك؟

2 ـ ما السبب الأساسي في جميع المفاسد الأخلاقية والعملية؟

3 ـ ما السبب في اعتبار الحسود غير مؤمن بصفتي العدل والحكمة لله تعالى؟

4 ـ كيف تفهم الرواية القائلة أن الحسد غير الظاهر باللسان أو اليد مرفوع؟

5 ـ كيف تعالج الحسد بأسلوب عملي؟ (اختصر بثلاثة أسطر).

الدرس السادس عشر

الغضب ـ ١ ـ

عن الإمام الصادق عليه السلام:

«الغضب مفتاح كل شر»[1].

طبيعة الغضب:

ينقل أن سقراطيس كان يقول: «إني للسفينة إذا عصفت بها الرياح وتلاطمت عليها الأمواج وقذفت بها إلى اللجج التي فيها الجبال، أرجى مني للغضبان الملتهب، وذلك أن السفينة في تلك الحال يلطف لها الملاحون ويخلصونها بضروب الحيل، أما النفس إذا استشاطت غضباً فليس يرجى لها حيلة البتة، وذلك أن كل ما رُقي به الغضب من التضرع والموعظة والخضوع يصير بمنزلة الجزل من الحطب يوهجه ويزيده استعاراً».

والغضب ليس شراً دائماً، وإنما له فوائد في مكانه الصحيح ويصبح قبيحاً مع الإفراط ووضعه في غير محلة.

فوائد القوة الغضبية:

قد يتصور بعض الناس أن قتل غريزة الغضب بالكامل وإخماد أنفاسها يعد من الكمالات والمعارج النفسية، وهم بذلك يرتكبون خطيئة عظيمة، فإن هذه الغريزةمن النعم الإلهية العظيمة التي ينبغي حفظها وشكر الباري عليها، إن التفريط والنقص من حال الاعتدال يعد من مثالب الأخلاق المذمومة ومن نقائص الكمالات التي ترتب عليها الكثير من المفاسد والعيوب. وسنشير هنا إلى بعض فوائد هذه القوة:

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الغضب، الحديث 3.

- إن وجود هذه الغريزة الشريفة في الإنسان وكذلك في الحيوان تدفعه للدفاع عن نفسه من هجمات الطبيعة، ولولاها لآل أمره إلى الزوال والاضمحلال.

- إن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنفيذ الحدود والتعزيرات والجهاد ضد الأعداء ودفع المؤذيات والمضرات عن الفرد والمجتمعالدين وسائر التعاليم السياسية الدينية والعقلية لا يكون إلا في ظل القوة الغضبية الشريفة وتحت لوائها.

- لولا هذه القوة لما استطاع الإنسان أن يصل إلى الكثير من مراتب تطوره وكمالاته ولابتلى بكثير من العيوب والمفاسد كالخوف والضعف والخمود والتكاسل والطمع وقلة الصبر وعدم الثبات وتحمل الظلم وقبول الرذائل والاستسلام لما يصيبه وانعدام الغيرة وخور العزيمة... والله تعالى يصف المؤمنين بقوله:

﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾.

فهذه الغريزة في بني آدم هي رأسمال الحياة الملكية والملكوتية، ومفتاح الخيرات والبركات، لذلك سعى الحكماء إلى معالجة خمود هذه الغريزة وركودها.

كيف نوقظ هذه الغريزة الشريفة؟

إن غريزة الغضب موجودة لدى كل إنسان ومودعة في باطنه، ولكنها في بعضهم خامدة منكمشة، كالنار تحت الرماد، فالواجب على من يلحظ في نفسه حال الخمول والضعف وانعدام الغيرة أن يعالج الحالة بضدها ويخرج نفسه مما هي فيه إلى حال من الاعتدال، وهناك معالجات علمية وعملية لإيقاظها و تحريكها: مثل الإقدام على الأمور العظيمة المخيفة، والذهاب إلى ميادين الحرب، والجهاد ضد أعداء الله.

الإفراط في الغضب قبيح:

كما كان التفريط ونقص الاعتدال من الصفات المذمومة التي تؤدي إلى كثير

من المفاسد التي ذكرنا بعضها، كذلك الإفراط وتجاوز حد الاعتدال، فهو أيضاً من الصفات المذمومة التي تقود إلى مفاسد كثيرة، وقد ورد في الحديث الشريف عن أبي عبد الله عليه السلام:

«الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل»[1].

فقد يصل الغضب بالإنسان إلى حد الإرتداد عن دين الله وإطفاء نور الإيمان بحيث أن ظلام الغضب وناره تحرق العقائد الحقة، فيصل إلى الهلاك الأبدي، ثم ينتبه على نفسه بعد فوات الأوان وحين لا ينفع الندم، ولذلك يمكن أن توصف هذه السجية بأنها أم الأمراض النفسية ومفتاح كل شر، على المستويين، الخلقي والعملي:

ـ أما المفاسد الأخلاقية التي تتبع الغضب فهي: الحقد على عباد الله، وقد ينتهي به الأمر إلى الحقد على الأنبياء والأولياء، بل وحتى على ذات الله المقدسة ولي النعم!. وكذلك الحسد الذي سبق الحديث عن مفاسده وشروره. وغيرها من المفاسد.

ـ وأما مفاسد الغضب المؤثرة في الأعمال فإنها ليست بمحصورة، فلعله يتفوه بما فيه الإرتداد، أو سب الأنبياء والأولياء ـ والعياذ بالله ـ وهتك الحرمات الإلهية، وخرق النواميس المقدسة، وقتل الأنفس الزكية، والإفتراء على العوائل المحترمة والتسبب لها بالعار والذل، ويقضي على النظام العائلي بكشف الأسرار وهتك الأستار، وغيرها من المفاسد التي لا تحصى، لقد وقعت أفظع الفتن، وارتكبت أفجع الأعمال بسبب الغضب واشتعال ناره الحارقة.

عقاب الغضب في الأخرة:

ورد في الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام:

«إن هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم»[2].

---

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الغضب، الحديث 1.

(2) المصدر نفسه، الحديث 12.

ونار الغضب هذه التي هي جمرة الشيطان في هذه الدنيا، يمكن أن تكون صورتها في ذلك الآخرة صورة نار الغضب الإلهي الذي يحرق الإنسان، كما ورد في رواية عنه عليه السلام:

«مكتوب في التوراة فيما ناجى الله عز وجل به موسى: يا موسى أمسك غضبك عمن ملكتك عليه، أكف عنك غضبي»[1].

ولا شك في أنه ليست هناك نار أشد من نار غضب الله عذاباً. وقد جاء في كتب الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام:

«قال الحواريون لعيسى عليه السلام: أي الأشياء أشد؟ قال: أشد الأشياء غضب الله عز وجل، قالوا: بِمَ نتقي غضب الله عليه السلام قال: بأن لا تغضبوا»[2].

إن غضب الإنسان في هذه الدنيا يأخذ صورة غضب الله تعالى في الآخرة، وكما أن الغضب يظهر من القلب، فلعل نار الغضب الإلهي الذي منطلقه القلب، تنبعث من داخل القلب أيضاً، وتسري إلى الظاهر، وتخرج ألسنة نيرانها المؤلمة من الأعضاء الظاهرية مثل العين والأذن واللسان وغيرها، ثم هذه الأعضاء نفسها ستكون أبواباً تتفتح على جهنم فتحيط نار جهنم بظاهر جسد الإنسان للتتجه إلى الباطن، فيقع الإنسان في العذاب والشدة بين جهنمين: أحدهما يبرز من باطن القلب ليسري في عالم الجسد، وثانيهما صورة قبائح الأعمال وتجسم الأعمال حيث تتصاعد نيرانها من الظاهر إلى الباطن، والله سبحانه وتعالى يعلم مدى هذا الضغط! إنه غير الإحتراق وغير الإنصهار، فالإحاطة في الآخرة تختلف عن الإحاطة التي نتصورها، لأن الإحاطة التي نتصورها تحيط بالظاهر، وأما الإحاطة في الآخرة فتكون بالظاهر والباطن.

وإذا صارت صفة الغضب راسخة في نفس الإنسان ـ لا سمح الله ـ كانت

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الغضب، الحديث 7.
(2) وسائل الشيعة، المجلد 11، أبواب جهاد النفس، ص 289.

المصيبة أعظم وأصبحت صورة الإنسان في البرزخ ويوم القيامة صورة الوحوش والسباع، السباع التي لا شبيه لها في هذه الدنيا، لأن سبعية الإنسان لا يمكن مقارنتها بسبعية أي حيوان.

وقد وصفهم الله تعالى بقوله:

﴿إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾[1].

ووصف قلوبهم فقال:

﴿فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾[2].

هذا كلهإذا لم يستتبع الغضب معاص أخرى، بل بقي ناراً داخلية مظلمة تتقد في الباطن ليفسد دخانها الأسود نور الإيمان ويطفئه. وعندما تستعر نار الغضب فمن البعيد أن لا يرتكب معاصٍ وموبقات ومهلكات أخرى كأن يسب الأنبياء والمقدسات - والعياذ بالله - أو يقتل نفساً بريئة مظلومة أو يهتك الحرمات فيخسر الدنيا والآخرة، كما جاء في الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام:

«أي شيءٍ أشد من الغضبِ ؟! إن الرجل ليغضب فيقتل النفس التي حرم الله ويقذف المحصنة»[3].

(1) سورة الفرقان، آية/44.

(2) سورة البقرة آية/74.

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الغضب، الحديث 4.

أسئلة الدرس

1 ـ ما هي فوائد الغضب في مكانه الصحيح؟
2 ـ كيف نوقظ الغضب إذا كان خامداً؟
3 ـ ما هي مفاسد الإفراط في الغضب على المستويين الأخلاقي والعملي؟
4 ـ في أي صورة يتجسد الغضب في الآخرة؟ وبأي صورة يظهر صاحب الغضب هناك؟
5 ـ ما الفرق بين ظهور نار الغضب في الآخرة وبين النار العادية في الدنيا؟

الدرس السابع عشر

الغضب ـ٢ـ

عن أبي جعفر عليه السلام:

«إن هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم، وإن أحدكم إذا غضب احمرت عيناه وانتفخت أوداجه ودخل الشيطان فيه، فإذا خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض فإن رجز الشيطان يذهب عنه عند ذلك».

إخماد سعير الغض:

ينبغي على الإنسان كظم الغيظ وإخماد سعير الغضب، فإنه من جوامع الكلم ودائرة تمركز الحسنات ومجمع الكرامات، كما جاء في الحديث عن أبي عبد الله عليه السلام:

«أتى رسول الله رجلٌ بدوي، فقال: إني أسكن البادية فعلمني جوامع الكلام، فقال: آمرك أن لا تغضب. فأعاد عليه الأعرابي المسألة ثلاث مرات حتى رجع الرجل إلى نفسه، فقال: لا أسأل عن شيء بعد هذا، ما أمرني رسول الله إلا بالخير. قال عليه السلام: «وكان أبي يقول: أي شيء أشد من الغضب؟ إن الرجل ليغضب فيقتل النفس التي حرم الله ويقذف المحصنة»[1].

بعد أن يدرك الإنسان، في حال تعقله وسكون نفسه وخمود غضبه، المفاسد الناجمة عن الغضب، والمصالح الناجمة عن كظم الغيظ، يلزم أن يحتم على نفسه أن يطفئ هذا اللهيب الحارق وهذه النار المشتعلة في قلبه، ليغسل قلبه من الظلام والكدر، ويعيد إليه صفاءه ونقاءه.

---

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الغضب، الحديث 4.

وهذا الأمر ممكن حتماً بشيءٍ من مخالفة النفس والعمل ضد هواها، وبقليل من النصح والإرشاد والتدبر في عواقب الأمور.

كيف تعالج نفسك؟

إن علاج الغضب المشتعل يكون من جهتين: علمية وعملية.

ـ **العلاج العلمي:** وهو أن يتفكر الإنسان في تلك الأمور التي ذكرت في الدرس السابق.

ـ **العلاج العملي:** وأهمه صرف النفس عن الغضب عند أول ظهوره. فإن الغضب أشبه بالنار التي تزداد شيئاً فشيئاً، وتشتد حتى يتعالى لهيبها وترتفع حرارتها ويفلت من سيطرة الإنسان، وهكذا الغضب سيتطور حتى يخمد نور العقل والإيمان ويطفئ سراج الهداية فيصبح الإنسان ذليلاً مسكيناً.

فعلى الإنسان أن يأخذ حذره قبل أن يزداد اشتعال الغضب ويرتفع سعيره، ويبادر إلى إطفاء هذه النار، وهناك عدة أساليب لإطفاء هذه النار:

منها: أن يشغل نفسه بذكر الله تعالى ـ وهناك من يرى وجوب ذكر الله في حال الغضب ـ أو بأمور أخرى تقطع تفاعله الزائد مع الموضوع الذي أثاره وتبعده عن الغضب.

ومنها: أنيغادر المكان الذي ثار فيه غضبه.

ومنها: أن يغير من وضعه، فإن كان جالساً فلينهض واقفاً، وإذا كان واقفاً فليجلس.

ومنها: وهو خاص بالغضب على ذي رحم، فإن أحس بالغضب فليدنُ منه ويمسه، لأن الرحم إذا مسّت سكنت، كما في الرواية.

وهناك عدة روايات أشارت إلى هذه الأساليب، منها رواية عن أبي جعفر عليه السلام:

«إن هذا الغضب جمرة من الشيطان توقد في قلب ابن آدم، وإن أحدكم إذا غضب احمرت عيناه وانتفخت أوداجه ودخل الشيطان فيه، فإذا

خاف أحدكم ذلك من نفسه فليلزم الأرض فإن رجز الشيطان يذهب عنه عند ذلك»[1].

وفي رواية أخرى عن ميسر قال: ذُكر الغضب عند أبي جعفر الباقر عليه السلام فقال:

«إن الرجل ليغضب فما يرضى أبداً حتى يدخل النار، فأيما رجل غضب على قوم وهو قائم فليجلس من فوره ذلك، فإنه سيذهب عنه رجز الشيطان وأيما رجل غضب على ذي رحم فليدن منه فليمسه، فإن الرحم إذا مسّت سكنت»[2].

إن كبح جماح الغضب في بداية ظهوره أمر سهل ولا يحتاج للعناء والتعب، وإذا أوقفه الإنسان في هذه المرحلة ومنعه من التفاعل، فسيفيده هذا في أمرين:

1 ـ يهدئ النفس ويقلل من اشتعال الغضب.

2 ـ سيروض النفس ويؤدي إلى معالجتها الجذرية، وسيصل بالتالي إلى حالة الإعتدال والتوازن.

كيف تعالج غيرك؟

إذا أردت أن تعالج غضب غيرك فعليك أن تبادر عند ظهور علامات الغضب الأولى، ويكون علاجه فإحدى الطرق العلمية والعملية المذكورة، ولكن إذا اشتدت حاله واشتعل غضبه، فإن النصائح تنتج عكس المطلوب، ولذلك يكون علاجه وهو في هذه الحال صعباً.

هناك علاج قد يفيد في حالة اشتعال الغضب واشتداده، وهو تخويفه من قبل شخص يهابه ويخشاه، فإن الغاضب إنما يغضب عندما يرى نفسه اقوى ممن يغضب عليه، أو يرى أنه ـ على الأقل ـ يتساوى معه في القوة. أما الذين يرى أنهم

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الغضب، الحديث 12.

(2) المصدر نفسه، الحديث 2.

أقوى منه فلا يظهر الغضب أمامهم، بل تكون الفورة والإشتعال في باطنه ويبقى محبوساً في داخله ويولد الحزن في قلبه. فالعلاج في مرحلة الإنفعال الشديد سيكون على جانب كبير من الصعوبة، نعوذ بالله منه.

اقتلاع أسباب الغضب:

من أهم سبل معالجة الغضب هي اقتلاع جذوره بإزالة الأسباب المثيرة له. وقد ذكروا أسباباً كثيرة للغضب مثل: العجب والزهو والكبرياء والمراء والعناد والمزاح وغيرها مما يطيل البحث الدخول في تفاصيلها، ولكن أكثرها تنطوي ـ بشكل مباشر أو غير مباشر ـ تحت عنوانين أساسيين هما:

1 ـ حب الذات: ويتفرع عنه حب المال والجاه والنفوذ والتسلط. فمن كانت فيه هذه الأنواع من الحب، اهتم بهذه الأمور كثيراً، وكان لها في قلبه مكان رفيع. فإذا واجه بعض الصعوبات في واحدة منها، أو أحس أن هناك من ينافسه فيها، تنتابه حال من الغضب والهيجان دون سبب ظاهر، فلا يعود يملك نفسه، ويستولي عليه الطمع ويمسك بزمامه مع سائر الرذائل الناجمة عن حب الذات، وحاد بأعماله عن جادة الشريعة والعقل.

وأما إذا لم يكن شديد التعلق والإهتمام بهذه الأمور، فإن هدوء النفس والطمأنينة الحاصلة من ترك حب الجاه والمقام وتفرعاتها تمنع النفس من أن تخطو خطوات تخالف العدالة والرويّة.

إن الإنسان البسيط وغير المتكلف يتحمل المنغصات ولا تتقطع حبال صبره، فلا يستولي عليه الغضب المفرط في غير وقته. أما إذا اقتلع جذور حب الدنيا من قلبه اقتلاعاً، فإن جميع المفاسد تهجر قلبه وتحل محلها الفضائل الأخلاقية السامية.

2 ـ الجهل والاشتباه في فهم الكمال: فقد يظن الإنسان بسبب جهله وقلة معرفته أن الغضب وما يصدر عنه من سائر الأعمال القبيحة والرذائل السافلة، كمالاً، فيحسب الغضب من الفضائل، ويراه بعض الجهّال فتوّة وشجاعة وجرأة،

فيتباهى ويطري على نفسه في أنه فعل كذا وكذا، ويحسب هذه الصفة الرذيلة المهلكة شجاعة! هذه الشجاعة التي تكون من أعظم صفات المؤمنين، وأشرف الصفات الحسنة.

فإذا تعلم الإنسان وعرف أن الغضب ليس شجاعة، عرف أنه نقص وليس كمالاً، وينبغي التخلص من هذا العيب والابتعاد عنه، لا التباهي به.

الفرق بين الغضب والشجاعة:

هناك فرق كبير جداً بين الغضب والشجاعة، إن من جهة المنشأ والأسباب أو من جهة الآثار والنتائج:

ـ فعلى مستوى المنشأ والأسباب: إن مبدأ الشجاعة هو قوة النفس والطمأنينة والاعتدال والإيمان وقلة المبالاة بزخارف الدنيا وتقلباتها.

أما الغضب فناشئ عن ضعف النفس وتزلزلها، وقلة الإيمان، وعدم الاعتدال في المزاج وفي الروح، وعن حب الدنيا والاهتمام بها، والتخوف من فقدان اللذائذ البشرية.

لذلك تجد هذه الرذيلة مستحكمة في المرضى أكثر مما هي في الأصحاء، وفي الصغار أكثر مما هي في الكبار، وفي الشيوخ أكثر مما هي في الشبان.

ومن كانت فيه رذائل أخلاقية أسرع إلى الغضب ممن فيهم فضائل أخلاقية، إذ يكون البخيل أسرع في الغضب من غيره إذا تعرض ماله وثروته للخطر.

فالشجاعة إذن عليعكس الغضب تماماً من جهة المنشأ والأسباب.

ـ وعلى مستوى الآثار والنتائج: فالغاضب وهو في حال ثورة غضبه، يكون أشبه بالمجنون الذي فقد عنان عقله، ويصبح مثل الحيوان المفترس الذي لا تهمّه عواقب الأمور، فيهجم دون تروّ أو احتكام إلى العقل، فيسلك سلوكاً قبيحاً، يفقد سيطرته على لسانه ويده وسائر أعضائه، وتلتوي شفتاه في هيئة قبيحة بحيث أنه لو أعطي مرآة لخجل من صورته التي يراها فيها.

إن بعض أصحاب هذه الرذيلة يغضبون لأتفه الأمور، يغضبون حتى على الحيوانات والجمادات، ويلعنون حتى الريح والأرض والبرد والمطر وسائر الظواهر الطبيعية إذا كانت على خلاف رغباتهم.

أما الشجاع فهو بخلاف ذلك تماماً، فأعماله لا تكون إلا عن روية ووفق ميزان العقل وطمأنينة النفس. يغضب في محل الغضب، ويحلم في محل الحلم، لا تهزه الأمور التافهة ولا تغضبه، وإذا غضب، غضب بمقدار، وينتقم بعقل، ويعرف كيف ينتقم ومتى وممن، وكيف يعفو ومتى وممن، وفي حال غضبه لا يفقد زمام نفسه، ولا يبادر بالكلام البذيء، ولا بالأعمال القبيحة، ويزن كل أعماله بميزان الشرع والعقل والعدل والإنصاف، ويخطو خطوات لا يندم عليها بعد ذلك.

فعلى الإنسان الواعي أن لا يخلط بين هذا الخلق الذي يتصف به الأنبياء والأولياء والمؤمنون، ويعد من الكمالات النفسية، وبين الخلق الآخر الذي هو من النقائص والصفات الشيطانية ومن وسوسة الخناس.

أسئلة الدرس

1 ـ أذكر ثلاث علاجات عملية لإطفاء نار الغضب

2 ـ ما الرابط بين حب الذات والغضب؟ اشرح ذلك على طريقتك.

3 ـ كيف يمكن علاج الغضب المشتعل إذا اشت؟

4 ـ هل الشجاعة تكون بسبب التخوف من فقدان اللذائذ البشرية، أم قلة المبالاة بها وبزخارف الدنيا؟

5 ـ ما الفرق بين الغضب والشجاعة؟ أذكر ميزتين.

الدرس الثامن عشر

العصبية

عن الإمام الصادق عليه السلام قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من كان في قلبه حبة من خردل[1] من عصبية، بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية»[2].

ما هي العصبية؟

العصبي: هو الذي يعِين قومه على الظلم ويغضب لعصبته ويحامي عنهم.

والعصبية: هي واحدة من سجايا النفس وصفاتها و ميولاتها، و يكون أثرها الدفاع عن الأقرباء وحمايتهم، بل وجميع المرتبطين به بشكل من الأشكال، بما في ذلك الارتباط الديني أو المذهبي أو المسلكي، والارتباط بالوطن وترابه، والارتباط بالأستاذ والمعلم أو بالتلاميذ، وما إلى ذلك.

والعصبية من الأخلاق الفاسدة والسجايا غير الحميدة، وهي مذمومة وقبيحة، حتى لو كانت في طريق الحق، أو من أجل أمر ديني، ما دامت لا تستهدف إلا تفوقه وتفوق مسلكه ومسلك عصبته، وما دام هدفه ليس الدفاع عن الحق و إظهار الحقيقة.

وأما إظهار الحق والحقيقة وإثبات الأمور الصحيحة والترويج لها وحمايتها والدفاع عنها، فإما أنه لا يمكن تسميته بالتعصب أصلاً أو إذا سميناه تعصباً فهو ليس من التعصب القبيح. فالمرء إذا تعصب لأقربائه أو أحبته ودافع عنهم، فما كان بقصد إظهار الحق ودحض الباطل فهو تعصب محمود ودفاع عن الحق والحقيقة، ويعد من أفضل الكمالات الإنسانية، ومن خُلُق الأنبياء والأولياء.

(1) الخردل: نبات معروف له خواص كثيرة، ويصنع منه الشمع.

(2) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب العصبية، حديث 3.

وأما إذا تحرك بدافع قوميته وعصبيته بحيث أخذ يدافع عن قومه وأحبته في باطلهم وسايرهم فيه ودافع عنهم، فهذا شخص تجلت فيه سجية العصبية الخبيثة، وصار في زمرة أعراب الجاهلية الذين كانوا يعيشون في البوادي قبل الإسلام. بل إن هذه الصفة توجد في معظم أهل البوادي كما ورد في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام:

«إن الله سبحانه يعذب طوائف ستة بأمور ستة: أهل البوادي بالعصبية وأهل القرى بالكبر والأمراء بالظلم، والفقهاء بالحسد، والتجار بالخيانة، وأهل الرساتيق بالجهل».

المتعصب يخرج من ربقة الإيمان:

يستفاد من الأحاديث الشريفة أن العصبية من المهلكات، تتسبب بسوء العاقبة والخروج من عصمة الإيمان.

جاء في الرواية عن أبي عبد الله عليه السلام:

«من تعصب أو تُعُصب له فقد خُلع رِبْقُ الإيمان من عنقه»[1].

أي أن المتعصب بتعصبه يكون قد خرج من إيمانه، وأما المتعصب له، فبما أنه قد رضي بعمل المتعصب، يصبح شريكاً له في العقاب. كما جاء في الحديث الشريف:

«ومن رضي بعمل قوم حشر معهم. أما إذا لم يرضَ به واستنكره فلن يكون منهم».

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

«من تعصب عصبه الله بعصابة من النار»[2].

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب العصبية، حديث 2.
(2) المصدر نفسه، حديث 4.

وعنه عليه السلام:

«لم يدخل الجنة حمية غير حمية حمزة بن عبد المطلب وذلك حين أسلم غضباً للنبي»[1].

وقصة إسلام حمزة بن عبد المطلب وردت بعبارات مختلفة، وليس هدفنا بحثها الآن.

إن الإيمان هو من الخِلع الغيبية الإلهية، التي يمن بها الله تعالى على المخلصين من عباده، والعصبية تتنافى مع الإخلاص فهي تدوس الحقائق وتخالف الصدق والإستقامة.

إن القلب إذا غطاه صدأ حب الذات والأرحام والتعصب القومي الجاهلي، فلن يبقى فيه مكان لنور الإيمان، ولا موضع للإختلاء مع الله ذي الجلال تعالى. فالمؤمن هو الملتزم بقواعد الدين والعقل، ولا يتحرك إلا بأمر من العقل والشرع، فلا يهتز موقفه بأي عادة من العادات السقيمة أو خلق من الأخلاق السيئة.إن الذي يدعي الإسلام والإيمان هو الذي يستسلم للحقائق ويخضع لها، ويرى أهدافه فانية في أهداف ولي نعمته ويضحي بنفسه وإرادته في سبيل إرادة مولاه الحقيقي. فإذا تعارضت العصبية الإسلامية عنده مع العصبية الجاهلية، قدّم الإسلام وحب الحقيقة.

العصبية الحقيقية:

إن جميع الإرتباطات والعلاقات والعصبيات زائلة، إلا العلاقة بين الخالق والمخلوق، وتلك هي العصبية الحقيقية التي هي أمر غير قابل للزوال، وهو أوثق من كل ارتباط وأقوى من كل حسب وأسمى من كل نسب.

وفي الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال:

«كل حسب ونسب منقطع يوم القيامة إلا حسبي ونسبي»[2].

---

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب العصبية، حديث 5.

(2) وسائل الشيعة، كتاب النكاح، الباب الثامن من أبواب مقدمات وآداب النكاح، حديث 5.

فإن حسب رسول الله ﷺ روحاني وباق، وبعيد عن جميع العصبيات الجاهلية، إن نسبه علاقة إلهية لا تظهر على كمال حقيقتها إلا في ذلك العالم، حيث يكون ظهوره أكثر وكماله أوضح.

إن العلائق الجسمانية الملكية القائمة على العادات البشرية تتقطع بأتفه الأسباب، وليس لأي منها في ذلك العالم نفع ولا قيمة. إلا تلك العلائق التي تتوثق في نظام ملكوتي إلهي تحت ظل ميزان القواعد الشرعية والعقلية التي لا انفصام لها.

الصورة الملكوتية للعصبية:

إن المعيار في صورة الإنسان الملكوتية التي ستظهر في البرزخ والقيامة هو الملكات وقوتها. فذلك العالم هو محل ظهور سلطان النفس الذي لا يعصي له الجسم أمراً. فقد يحشر الإنسان في ذلك العالم على صورة حيوان أو شيطان.

وقد ذكرنا الحديث:

«من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية بعثه الله يوم القيامة مع أعراب الجاهلية».

إن الإنسان الذي فيه هذه الرذيلة، لعله عندما ينتقل إلى العالم الآخر يرى نفسه من أعراب الجاهلية من غير إيمان بالله تعالى ولا بالنبوة والرسالة. ويرى أنه في الصورة التي يحشر بها أولئك الأعراب، حتى أنه لا ينسى ما كان يعتنقه في الدنيا من عقائد حقة، كما جاء في الحديث عن أهل جهنم ينسون اسم رسول الله، ولا يستطيعون أن يعرفوا أنفسهم إلا عندما يشاء الحق سبحانه أن ينجيهم.

وبما أن العصبية من سجايا الشيطان، كما ورد في بعض الأحاديث، فلعل أعراب الجاهلية وأصحاب العصبية يحشرون يوم القيامة على هيئة الشياطين.

في الصحيح عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام:

«إن الملائكة كانوا يحسبون أن إبليس منهم وكان في علم الله أنه ليس

منهم فاستخرج ما في نفسه بالحميّة والغضب. فقال خلقتني من نار وخلقته من طين»[1].

فاعلم أن هذه الخصلة الخبيثة من الشيطان، وإنها من مغالطات ذلك الملعون ومعاييره الباطلة. إنه يغالط عن طريق هذا الحجاب السميك الذي يخفي عن النظر كل الحقائق، بل يظهر رذائل النفس كلها محاسن، وجميع محاسن الآخرين رذائل، والذي يرى الحقائق مقلوبة بهذا الشكل فلن تكون عاقبة أمره إلى خير.

عصبيات المتعلمين:

من جملة العصبيات الجاهلية هو العناد في القضايا العلمية، والدفاع عن كلمة سبق أن صدرت منه أو من معلمه، دون النظر إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل. وهذا النوع من التعصب أقبح من كثير من التعصبات الأخرى من جوانب عدة:

فمن جانب المتعصب نفسه، فمن المفترض بأهل العلم أن يكونوا هم المربين لأبناء البشر، فإذا اتصف العالم لا قدر الله بالعصبية الجاهلية، كانت الحجة عليه أتم وعقابه أشد، لأنه يعرف وخامة الأمور وعواقب فساد الأخلاق. ثم إذا كان يتظاهر بالصلاح وباطنه يحمل العصبية، يكون في زمرة أهل الرياء والنفاق، وقد أشار تعالى إلى أمثال هؤلاء في القرآن الكريم:

﴿بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين﴾[2].

ومن جانب العلم، إن هذه العصبية خيانة للعلم وتجاهل لحقه، إذ أن من يتحمل هذا العلم فعليه أن يراعي حقه عليه وحرمته.

ومن جانب المتعصب له، أي الأستاذ والشيخ، فإن هذا التعصب يوجب العقوق

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب العصبية، حديث 6.
(2) سورة الجمعة، آية/5.

له، وذلك لأن المشايخ العظام والأساطين الكرام - نضر الله وجوههم - يميلون إلى جانب الحق، ويهربون من الباطل، ويسخطون على من يتذرع بالتعصب لقتل الحق وترويج الباطل. ولا شك في أن العقوق الروحي أشد من العقوق الجسمي، وحق الأبوة الروحية أسمى من حق الابوة الجسمية.

أسئلة الدرس

1 - هل تختص العصبية بالتعصب للأقرباء أم تشمل كل من ارتبط به بأي رابط كان؟ أذكر مثالاً على ذلك.

2 - هل الدفاع عن الأقارب بقصد إظهار الحق يعتبر عصبية؟

3 - ما هي العصبية الحقيقية، والعلاقة التي لا تنتهي في الآخرة؟

4 - ما المقصود من الحسب والنسب في قول النبي الأكرم صلوات الله عليه وآله: «كل حسب ونسب منقطع يوم القيامة إلا حسبي ونسبي»؟

5 - كيف تكون عصبية المتعلمين؟

الغيبة -١-

عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الأكلة في جوفه».

ما هي الغيبة؟

المستفاد من الروايات أن الغيبة هي: «ذكر الإنسان حال غيبته بما يكره نسبته إليه مما يعد نقصاناً في العرف، بقصد الإنتقاص والذم».

ففي رواية عن أبي ذر رضوان الله تعالى عليه:

«قلت: يا رسول الله ما الغيبة؟ قال: ذِكرك أخاك بما هو فيه فقد اغتبته، وإذا ذكرته بما ليس فيه فقد بهته»[1].

وورد في الحديث النبوي الشريف:

«هل تدرون ما الغيبة؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ذِكرك أخاك بما يكره...»[2].

والمقصود من الأخ هو الأخ في الإيمان لا النسب، و«ما يكره» تعبير عن كل ما فيه نقص عرفاً.

وما ذُكر في التعريف «بقصد الإنتقاص والذم» مستفاد من مضمون الرواية وإن لم تذكر ذلك بشكل صريح، ففي بداية رواية أبي ذر عن النبي صلى الله عليه وآله:

«والغيبة لا تغفر حتى يغفرها صاحبها، ثم قال: ... وأكل لحمه من معاصي الله» فلا يسمى أنه أكل لحمه إلا إن قصد الإنتقاص، أما لو

(1) وسائل الشيعة، المجلد الثامن، الباب 152 من أبواب أحكام العِشرة، الحديث 9.

(2) المحجة البيضاء، المجلد 5، صفحة 256.

قصد الشفقة مثلاً فليست هي أكل للحمه ولا يحتاج إلى طلب المغفرة وهي بالتالي ليست غيبة. ولكن ينبغي الإلتفات إلى أن إشاعة الفاحشة محرمة حتى وإن لم تكن غيبة.

وليس شرطاً أن تكون الغيبة باللسان، فيمكن أن تشمل ذكر عيبه من خلال الكتابة أو الإشارة أو غيرها من وسائل التعبير، ما دام ذاكراً للعيوب قاصداً للإنتقاص، وهو واضح في رواية عائشة قالت: «دخلت علينا امرأة فلما ولّت أومأتُ بيدي أنها قصيرة، فقال - ﷺ - اغتبتيها»[1].

صورة الغيبة الحقيقية:

إن حرمة الغيبية تعد من بديهيات الفقه، وهي من المعاصي الكبيرة والموبقات المهلكة. إن لهذه الخطيئة الكبيرة في عالم الغيب وراء حجاب الملكوت، صورة قبيحة وبشعة تفضح الإنسان في الملأ الأعلى أمام الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين. هذه الصورة البشعة التي أشار إليها سبحانه وتعالى في قوله:

﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾.

إن لأعمالنا صوراً وأشكالاً تناسبها ستظهر بتلك الصور والأشكال لتعود إلينا في العالم الآخر،والمغتاب يضاهي الكلاب الجارحة في افتراسه لأعراض الناس ولحومهم، وسيظهر بهذه الصورة - كلب ينهش لحم ميت - في نار جهنم.

وفي رواية أن رسول الله ﷺ لما رجم الرجل في الزنا، قال رجل لصاحبه:

«هذا أُقعِص[2] كما يُقعَص الكلب، فمرّ النبي معهما بجيفة، فقال: إنهشا منها، فقالا: يا رسول الله ننهش جيفة؟ فقال: ما أصبتما من أخيكما انتن من هذه»[3].

(1) جامع السعادات، المجلد 2، ص294.
(2) القعص: القتل.
(3) المحجة البيضاء، المجلد الخامس، ص253.

إن رسول الله ﷺ قد شاهد ـ بما لديه من قوة نور البصيرة النبوية الغيبية ـ عمل المغتابين وعرف أن جيفة الغيبة أشد نتانة من جيفة الميتة، والصورة الحقيقية للغيبة أشد قبحاً وفظاعة من صورة الميتة المتفسخة.

وفي رواية أخرى أن المغتاب يُأكل من لحمه يوم القيامة فعن أمير المؤمنين عليه السلام:

«اجتنب الغيبة فإنها إدام كلاب النار، ثم قال: يا نوف كذب من زعم أنه ولد من حلال وهو يأكل لحوم الناس بالغيبة»[1].

ومعنى الروايتين أن المغتاب سيصاب بأمرين في جهنم:

فمن جهة يكون على صورة الكلب فيأكل الجيفة، ومن جهة أخرى يكون على صورة الميتة تأكله كلاب جهنم أيضاً، وفي عالم الآخرة يمكن أن يكون للموجود أكثر من صورة وشكل كما هو محقق في محله.

خطورة الغيبة:

الروايات في خطور الغيبة أكثر من مجال هذه الصفحات، وسنقتصر على ذكر بعضها:

ـ الخروج من ولاية الله: عن الإمام الصادق عليه السلام:

«ومن اغتابه بما فيه فهو خارج من ولاية الله تعالى داخل في ولاية الشيطان»[2].

إن من يخرج من ولاية الله تعالى ويدخل في ولاية الشيطان، لا يمكن أن يكون من أهل النجاة والإيمان.

إن من يؤمن بالله ويصدق بيوم الجزاء ويعتقد أن أعماله ستطارده يوم القيامة وتحشر معه، لا يقترف موبقة كبيرة، تقوده إلى شر المصائب التي هي نار جهنم.

---

(1) وسائل الشيعة، المجلد الثامن، باب 152 من أبواب أحكام العشرة، الحديث 16.
(2) بحار الأنوار، المجلد 75، باب الغيبة، حديث 12.

فالمغتاب آمن بلسانه ولكنه لم يخلص في قلبه كما هو مستفاد من رواية عن رسول الله ﷺ:

«يا معشر من أسلم بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه لا تذموا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم...»[1].

- **أربى الربا**: وفي رواية عنه ﷺ، أنه خطب يوماً فقال:

«إن الدرهم يصيبه الرجل من الربا أعظم من ست وثلاثين زنية، وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم»[2].

- **أدنى الكفر**: عنه ﷺ:

«أدنى الكفر أن يسمع الرجل من أخيه كلمة، يحفظها عليه يريد أن يفضحه بها أولئك لا خلاق لهم».

- **مشكلته مع الناس**: إن هذه المعصية أشد من كافة المعاصي، وآثارها أخطر من آثار الذنوب الأخرى، لأنها بالإضافة لكونها تجاوزاً لحدود الله تعالى، تمس حقوق الناس أيضاً. ولا يغفر الله للمغتاب حتى يرضى صاحب الغيبة، فقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ في وصيته لأبي ذر:

«يا أبا ذر إياك والغيبة، فإن الغيبة أشد من الزنا. قلت: ولمَ ذاك يا رسول الله؟ قال: لأن الرجل يزني فيتوب إلى الله فيتوب الله عليه، والغيبة لا تغفر حتى يغفرها صاحبها»[3].

فلو مات الإنسان وعليه حقوق للناس، فأمره صعب جداً، لأن علاقة الإنسان في حقوق الله تكون مع الكريم الرحيم الذي لا يتطرق إلى ساحته القدسية شيء من البغض والضغينة والعداوة والتشفي، ولكنه في حقوق العباد قد يرتبط بإنسان فيه تلك الصفات الفاسدة ولا يتجاوز عنه بسرعة أو لا يرضى عنه نهائياً.

---

(1) أصول الكافي المجلد ٢، كتاب الإيمان والكفر، باب من طلب عثرات المؤمنين، حديث 2.
(2) المحجة البيضاء، المجلد الخامس، ص253.
(3) وسائل الشيعة، المجلد الثامن، الباب 152 من أبواب أحكام العِشرة، حديث 9.

عقوبة الغيبة:

وأما عقوبة الغيبة، فبالإضافة إلى صورته التي سيكون عليها في ذلك العالم والتي أشرنا إليها فيما سبق، يكفي أن نقرأ الرواية عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال:

«لما أسري بالنبي ﷺ، قال: يا ربّ ما حال المؤمن عندك؟ قال: يا محمد، من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة وأنا أسرع (شيء) إلى نصرة أوليائي»[1].

فمن عقاب المغتاب:

- **فضحه في الآخرة قبل وضعه في النار:** عن رسول الله ﷺ:

«... ومن مشى في غيبة أخيه وكشْفِ عورته»[2].

وعنه ﷺ:

«من اغتاب امرءً مسلماً... وجاء يوم القيامة يفوح من فيه رائحة انتن من الجيفة يتأذى به أهل الموقف»[3].

- **فضحه في البرزخ:** فقد روي أيضاً عن رسول الله ﷺ في بيان حال المغتاب في البرزخ الرواية التالية:

«مررت ليلة أسري بي على قومٍ يخمشون وجوههم بأظافيرهم، فقلت: يا جبرئيل! من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم»[4].

- **فضحه في الدنيا:** إن بعض مراتب الغيبة يدفع بصاحبها على الفضيحة في هذا العالم أيضاً، فعن رسول الله ﷺ:

«يا معشر من أسلم بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه لا تذموا

(1) أصول الكافي، المجلد ٢، كتاب الإيمان والكفر، باب من آذى المسلمين، حديث 8.

(2) عقاب الأعمال، ص340.

(3) وسائل الشيعة، المجلد ٨، الباب 152 من أبواب أحكام العِشرة، حديث 13.

(4) المحجة البيضاء، المجلد 5، ص251.

المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في بيته»[1].

إن الله تعالى غيور على المؤمنين، فهتك سترهم وكشف عوراتهم هتكاً لناموس إلهي وكرامته. فلو تجاوز الإنسان الحدود باستهتاره، وهتك حرمات الله، رفع عن لطفه وعنايته وستره وفضحه في هذا العالم أمام الناس قبل أن يفضحه في الآخرة أمام الملائكة والأنبياء والأولياء؟.

- **إحباط أعماله هو محو حسناته:** روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«ما النار في اليبس بأسرع من الغيبة في حسنات العبد»[2].

وعنه ﷺ:

«يؤتى بأحدٍ يوم القيامة يُوقف بين يدي الرب عز وجل ويدفع إليه كتابه فلا يرى حسناته فيه، فيقول: إلهيليس هذا كتابي (فإني) لا أرى فيه حسناتي. فيقال له: إن ربك لا يضل ولا ينسى، ذهب عملك باغتياب الناس. ثم يؤتي بآخر ويدفع إليه كتابه، فيرى فيه طاعات كثيرة، فيقول: إلهي ما هذا كتابي فإني ما عملت هذه الطاعات. فيقال له: إن فلاناً اغتابك فدفع حسناته إليك»[3].

هذه هي الأخبار المأثورة في خصوص الغيبة. في حين أن عناوين أخرى من المعاصي المذكورة في الروايات تنطبق على الغيبة أيضاً وتشملها، فتتبعها تلك الآثام أيضاً مثل: إهانة المؤمن وإذلاله واحتقاره وتعييره وإحصاء عثراته والطعن فيه. وكل من هذه الأمور سبب مستقل لهلاك الإنسان.

---

(1) أصول الكافي، المجلد 2، كتاب الإيمان والكفر، باب طلب عثرات المؤمنين، حديث 2.

(2) المحجة البيضاء، المجلد الخامس، ص264.

(3) جامع الأخبار، ص171.

أسئلة الدرس

1 ـ هل ذكر كل عيب يعتبر غيبة أم هو خاضع للنية والقصد من ورائه؟

2 ـ ما الفرق بين الغيبة والبهتان؟

3 ـ كيف تكون صورة الغيبة في الآخرة؟

4 ـ لماذا اعتبرت الرواية عن النبي ﷺ الغيبة أشد من الزنا؟ اشرح ذلك.

5 ـ أذكر عقوبتين للغيبة، واحدة في الدنيا والأخرى في الآخرة.

الغيبة ـ ٢ ـ

عن رسول الله ﷺ:

«إن الجلوس في المسجد إنتظارَ الصلاةِ عبادة ما لم يُحدِث. قيل: يا رسول الله وما يحدث؟ قال: الإغتياب»[1].

المفاسد الإجتماعية للغيبة:

إن الغيبة بفسادها هي أقبح وأعظم من كثير من المعاصي، لأنها بالإضافة لكل ما ذكرناه من كونها مفسدة للإيمان والأخلاق والظاهر والباطن وتتسبب بفضيحة الإنسان في الدنيا والآخرة... هي بالإضافة إلى كل ذلك تشتمل على مفاسد إجتماعية أيضاً ولها تأثير سلبي جداً على المجتمع، ولنعرف ذلك علينا أن نطلع على المجتمع المثالي الذي يريده لنا الله سبحانه وتعالى:

إن من شروط تحقق المجتمع الصالح، توحيد الكلمة وتوحيد العقيدة والإتفاق في الأمور الهامة، والحد من ظلم الجائرين الباعث على فساد البشر ودمار القيم الفاضلة.

وهذا الأمر لا يتحقق إلا في ظل وحدة النفوس واتحاد الهمم والتآلف والتآخي والصداقة القلبية والصفاء الباطني والظاهري. بحيث يصبح المجتمع كأنه شخص واحد، والأفراد فيه بمنزلة الأعضاء والأجزاء لهذا الجسد. وتسير كل الجهود والمساعي باتجاه الهدف الإلهي الكبير، وهذه الحالة لو ظهرت في طائفة أو جماعة من الناس لتغلبوا على جميع الطوائف والأمم كما يتضح عند دراسة التاريخ والفتوحات الإسلامية العظيمة. فعندما تمتع المسلمون بشيء من الوحدة واقترنت

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الغيبة والبهت، الحديث 1.

مساعيهم بشيء من خلوص النية، استطاعوا أن يحققوا في فترة قصيرة إنجازات عظيمة هزموا الجبابرة وانتصروا على الجيوش.

لذلك نجد أن النبي ﷺ قد أجرى عقد الأخوة في الأيام الأولى بين المسلمين، فسادت الأخوة كما تفيد الآية الكريمة:

﴿إنما المؤمنون إخوة﴾[1].

وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام يقول لأصحابه:

«إتقوا الله وكونوا إخوة بررة في الله متواصلين متراحمين. تزاوروا وتلاقوا وتذاكروا أمرنا وأحيوه»[2].

وعنه عليه السلام:

«يحق على المسلمين الإجتهاد في التواصل والتعاون على التعاطف والمواساة لأهل الحاجة وتعاطف بعضهم على بعض حتى تكونوا كما أمركم الله عز وجل ﴿رحماء بينهم...﴾»[3].

وعنه عليه السلام:

«تواصلوا وتباروا وتراحموا وكونوا إخوة بررة كما أمركم الله عز وجل»[4].

ومن الطبيعي أن ما يناقض هذه الأخوة ويدفع نحو التمزق يعتبر مناقضاً لأهداف الشريعة ومبغوضاً عند الله تعالى. والغيبة إذا أشيعت فهي سبب للضغينة والحسد والعداوة والبغض وترسيخ جذور الفساد في المجتمع وضعضعة وحدة المجتمع وتضامنه، وفي النهاية لن تورث المجتمع إلا القبائح والفساد، فهي على طرف النقيض من التآلف والتآخي وسبب لقطع بركات تلك الحالة التي أسسها النبي ﷺ من بداية الإسلام.

(1) سورة الحجرات، آية/10.
(2) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب التراحم والتعاطف، حديث 1.
(3) المصدر نفسه، حديث 4.
(4) المصدر نفسه، حديث 3.

التوبة والاستدارك:

يجب على كل مسلم غيور ملتزم، لصيانة نفسه من الفساد وللمحافظة على المجتمع الإسلامي ووحدته ولتحكيم عقد الأخوة، أن يبتعد عن هذه الرذيلة، ويتوب إلى الله تعالى من هذا العمل البغيض، ويستدرك هذه الغيبة ليتخلص من آثارها السيئة.

عليه أن يسترضي من اغتابه إن كان الإسترضاء ممكنا ولم يلزم منه أي محذور، ولم يكن يفضي إلى مشكلة بينه وبين هذا الإنسان، فيستحله ويطلب منه المسامحة، ولكن لربما الإسترضاء في بعض الحالات يزيد الأمور سوءاً ويتسبب بمشاكل جديدة، تزيد بحالة التشنج والتفرقة، ففي مثل هذه الحالة يترك الإسترضاء وطلب الحلية والمسامحة، ويستعيض عنه بالإستغفار للإنسان الذي اغتابه، فيكون طلب المغفرة له من الله تعالى بمثابة الكفارة على الغيبة التي ارتكبتها بحقه.

ثم عليه أن ينعش من جديد في قلبه جذور الصداقة والاتحاد، حتى يصبح من الأعضاء الصالحين في المجتمع.

كيف نعالج هذه الموبقة:

إن معالجة هذه الخطيئة العظيمة وغيرها من الخطايا تكون من جهتين:

العلم النافع، والعمل.

العلم النافع: أن يفكر الإنسان في الآثار المفيدة التي تترتب على معالجة هذه الموبقة، ويقارنها بالمضاعفات السيئة والآثار الشنيعة التي تترتب على الغيبة، فيعرض كلا الأمرين على العقل ويستهديه لما فيه الحسن والخير والصلاح.

لا يمكن للإنسان أن يعادي نفسه ويتسبب لنفسه بالضرر من خلال ارتكاب المعاصي، ولكن يقترفها بسبب جهله وغفلته عن أسبابها ونتائجها. وتوهمه حصوله على الفوائد والمنافع إذا ارتكبها. كإرضاء رغباته وتضييع الوقت واللهو وإشفاء الغيظ ممن يحسده...

فعليك أن تقف عند آثار الغيبة الشنيعة التي ذكرنا قسماً منها فيما سبق، وتأخذ كل ذلك بعين الإعتبار لتقارن بين حسنات الكف عن الغيبة وسيئات الإنهماك بها. إن هذا التفكر سيوصلك إلى نتائج طيبة.

إن من آثارها الشنيعة في هذا العالم ـ غير ما ذُكر ـ سقوط الإنسان من أعين الناس، وفقدان الثقة به. فإن طبائع الناس مجبولة على حب الكمال والجمال والحسن، والنفور من كل نقص وقبح وانحطاط. فالناس يميزون ويفرقون بين من يتجنب هتك أستار الناس وكشف أعراضهم وأسرارهم، وبين غيره، بل حتى الذي يقوم بالغيبة يجد في قرارة نفسه أن من يتجنب الغيبة أفضل منه وأكمل.

ومن المحتمل أن تؤدي الغيبة إلى سوء العاقبة، لأنها إن ترسخت في النفس تركت آثاراً سيئة كالضغينة والعداوة تجاه المستغاب، وهذه الصفات ستزداد بشكل تدريجي، حتى إذا دنا أجله وانكشفت عنه الحجب ورأى المقامات الشامخة للذين اغتابهم، قد تتوجه كراهته للحق تعالى، لأن الإنسان بطبيعته يعادي محب عدوّه، ويبغض محب مبغضه. فيخرج من الدنيا وهو كاره للحق والملائكة ويمنى بالخذلان الأبدي والشقاء الدائم.

فعليك إذن أن تصادق عباد الله الذين تشملهم رحمة الله ونعمه، ويتزينون بالإسلام والإيمان ولتحبهم في قلبك، وإياك أن تعادي محبوب الحق تعالى. لأنه تعالى يعادي أعداء أحبته، وسيبعدك عن ساحة رحمته. خصوصاً إذا عرفت أن عباد الله المخلصين مجهولون بين سائر عباده، ومن الممكن أن يعود عداؤك لمؤمن وهتك حرمته وكشف عورته إلى هتك حرمة الله تعالى ومعاداته! «ويل لمن شفعاؤه خصماؤه».

فهذه الربع ساعة من الثرثرة واللغو في الحديث لأجل تحقيق رغبة وهمية هل تستحق أن تعاني لأجلها تلك الآلاف من سنين المعاناة ـ على الأقل ـ، أو ربما الخلود المؤبد في النار.

وتأمل في الروايات التي تخبرك بأن حسناتك ستنتقل إلى ذاك الشخص الذي

تستغيبه، وسيئاته ستنتقل إليك، فأنت في الحقيقة عاديت نفسك بالإستغابة بدل أن تعاديه، وأضريت بنفسك بدل أن تضره.

وأما من الناحية العملية: فلا بد من كف النفس عن هذه المعصية ولو لبعض الوقت ولفترة محددة تجددها بعد ذلك، مهما كان صعباً، ولجم اللسان، والمراقبة الكاملة للنفس، ومعاهدة النفس بعدم اقتراف هذه الخطيئة، ومراقبتها والحفاظ عليها ومحاسبتها، وتستطيع إصلاح نفسك بفترة قصيرة، حتى تصل لمرحلة تحس فيها بالتنفر من الغيبة بطبيعتك، بل تحس بأن راحة النفس ومتعتها بترك الغيبة.

الأفضل ترك الموارد الجائزة للغيبة

هناك بعض الحالات التي استثناها الفقهاء ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ من حرمة الغيبة واعتبروا أن الغيبة فيها غير محرمة تبلغ في بعض كلماتهم عشرة حالات.

وهذه الموارد بعضها يجوز فيها الغيبة وبعضها يجب. ولسنا بصدد عرض هذه الموارد لأنه بحث فقهي، وما يجب أن نلتفت إليه هنا أن مكائد النفس دقيقة وخفية فيمكن أن تخدع الإنسان عن طريق الشرع وتوقعه في الهلكة، فتأخذ هذه الموارد التي يجوز فيها الغيبة كغطاء وتبرير للوقوع في الحرام، فيسمح لنفسه بالبحث عن عيوب الناس وإشاعتها في المجتمع. فعلينا أن نتحرك في هذا الموضوع بغاية الدقة، ولا ننخدع عن طريق الشرع.

ففي الحالات التي يجب فيها الغيبة كغيبة الإنسان المتجاهر بالفسق إذا توقف ردعه على استغابته، فاستغابته هنا واجبة من باب النهي عن المنكر. فلا بد من ارتكابها، ولكن يجب أن يتأمل الإنسان بأن الدافع النفسي لغيبته هو النهي عن المنكر، أم أنه أهواء شيطانية ورغبة نفسية بسبب عداوته وحب التشفي منه؟ فإن كان الهدف هو النهي عن المنكر والدافع الإلهي فعمله من العبادات، وكانت غيبته

إحساناً وإنعاماً على المغتاب وإن لم يعرف ذلك. ولكن إذا كان الدافع هو الأهواء الفاسدة فلا بد من تخليص النية عن هذه الشوائب والإخلاص لله سبحانه وتعالى.

وأما في الحالات التي تجوز فيها الغيبة ولا تجب، فالأفضل أن لا يرتكبها أساساً، حتى لا تكون عناوين الجواز مجرد تبرير للوقوع في الغيبة من جهة، وحتى لا تتعود نفسه على الغيبة من جهة أخرى ـ حتى في الموارد الجائزة ـ ، فإن تعويد النفس على الغيبة في الموارد الجائزة يضر بها، ويجعلها تميل نحو الشرور والقبائح، ومن المحتمل أن ينجر بشكل تدريجي إلى الوقوع في الغيبة في الحالات المحرمة أيضاً.

الاستماع للغيبة حرام:

كما أن الإستغابة حرام فكذلك الإستماع للغيبة حرام، وهو من الكبائر أيضاً، ويظهر من بعض الروايات أن حكم الإستماع كحكم الإستغابة حتى في مثل التسامح من المغتاب.

فعن علي عليه السلام:

«السامع أحد المغتابَين»[1].

بل يظهر من الروايات وجوب رد الغيبة، وهو غير النهي عن الغيبة، والمقصود منه الإنتصار للغائب بما يناسب.ففي وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام:

«يا علي من اغتيب عنده أخوه المسلم فاستطاع نصره فلم ينصره خذله الله في الدنيا والآخرة»[2].

(1) غرر الحكم، المجلد الثاني، ص12.

(2) وسائل الشيعة، المجلد الثامن، الباب 156، من أبواب أحكام العِشرة، الحديث 1.

أسئلة الدرس

1 ـ لماذا تعتبر الغيبة متنافية مع تحقق المجتمع الصالح؟

2 ـ هل يجب استرضاء المغتاب؟ وما هي كفارة الغيبة؟

3 ـ لماذا تتسبب الغيبة بسقوط الإنسان من أعين الناس؟

4 ـ في موارد جواز الغيبة هل الأفضل ارتكابها أم تركها؟ لماذا؟

5 ـ ما الفرق بين رد الغيبة والنهي عنها؟

النفاق

عن الإمام الصادق عليه السلام:

«من لقي المسلمين بوجهين ولسانين، جاء يوم القيامة وله لسانان من نار»[1].

النفاق العملي والقولي:

لقاء المسلمين بوجهين هو أن يبدي المرء ظاهر حاله وصورته الخارجية لهم على خلاف ما تكون في باطنه وسريرته، كأن يبدي أنه من أهل المودة والمحبة لهم وأنه مخلص حميم، بينما يكون في الباطن على خلاف ذلك، فيتعامل بالصدق والمحبة في حضورهم ولا يكون كذلك لدى غيابهم. وهو ما يسمى «النفاق العملي».

وأما ذو اللسانين فهو أن يثني على كل من يلقى من المسلمين ويمتدحه ويتملق له، ولكنه في غيابه يعمد إلى تكذيبه وإلى استغابته، وهو ما يسمى «النفاق القولي».

والنفاق هو من الرذائل النفسية والصفات القلبية الخبيثة التي تنجم عنها آثار كثيرة يكون منها هذان الأثران المذكوران.

مراتب النفاق:

إن النفاق هو من صفات الشيطان الملعون كما أشار تعالى:

﴿وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين﴾.

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب ذي اللسانين، حديث 1.

وللنفاق مراتب مختلفة: فله مراتب من حيث القوة والضعف، وإذا لم يتصدَ لها الإنسان مالت إلى الاشتداد، ودرجات اشتداد الرذائل ـ كدرجات اشتداد الفضائل ـ غير متناهية ولا تقف عند حد، حتى يصل الأمر بتلك الرذيلة التي تابعها أن تتخذ الصورة الجوهرية للنفس وفصلها الأخير، وتصبح مملكة الإنسان، ظاهرها وباطنها تحت سيطرة تلك الرذيلة، فلا يلتقي شخصاً إلا عامله معاملة ذي الوجهين وذي اللسانين، دون أن يخطر له شيئ إلا منافعه الخاصة وأنانيته وعبادته لذاته، وحيث إن النفاق صفة شيطانية كما جاء في القرآن الكريم ﴿**وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين**﴾، صارت صورة النفس النهائية صورة للشيطان وسيكون مصيره أن يحشر مع الشياطين.

وله مراتب من جهة موضوعه الذي تعلق به، فقد يكون النفاق في دين الله، وقد يكون في السجايا الحسنة والفضائل الأخلاقية، وقد يكون في الأعمال الصالحة والمناسك الإلهية، وقد يكون في الأمور العادية والمتعارف عليها.

وله مراتب من جهة من نتعامل معه بالنفاق، فقد ينافق المرء مع رسول الله ﷺ، أو مع أئمة الهدى عليهم السلام، أو مع أولياء الله والعلماء والمؤمنين، وقد يكون شاملاً لجميع المسلمين وسائر خلق الله من الأمم الأخرى.

ومن الطبيعي أن قبح النفاق يختلف شدته بين هذه الدرجات.

عاقبة النفاق:

إن النفاق والاتصاف بذي الوجهين هي في نفسها من الصفات القبيحة التي لا يتصف بها إنسان شريف، بل إن المتصف بها يعتبر خارجاً عن مجتمع الإنسانية، بل هو لا يشبه الحيوان أيضاً. وهذه الصفة تبعث على الذل والفضيحة في الدنيا أمام الأصحاب والأقران، وتورث الذل والعذاب الأليم في الآخرة، كما ورد في الرواية السابقة، وعن أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«قال رسول الله ﷺ: يجيء يوم القيامة ذو الوجهين دالعاً لسانه في

قفاه وآخر من قدامه يلتهبان ناراً حتى يلهبا جسده، ثم يقال هذا الذي كان في الدنيا ذا وجهين ولسانين يُعرف بذلك يوم القيامة»[1].

ويكون مشمولاً بالآية الشريفة:

﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾[2].

والنفاق بالإضافة إلى ذلك تتبعه مفاسد أخرى كثيرة، مثل الفتنة التي ينص القرآن الكريم أنه **﴿أشد من القتل﴾**[3]، والنميمة التي يقول عنها الإمام الباقر عليه السلام: «**محرمة الجنة على القتّاتين المشّائين بالنميمة**»[4]، والغيبة التي قال عنها رسول الله صلى الله عليه وآله: «**إنها أشد من الزنا**»، وإيذاء المؤمن وسبه وكشف الستر عنه وإفشاء سره، وغيرها مما يعد كل واحد منها سبباً كافياً لهلاك الإنسان.

بل هناك بعض المحرمات التي تعتبر نفاقاً بنفسها، وهي: الغمز واللمز والكنايات التي يطلقها البعض على البعض الآخر، على الرغم من إظهار المحبة والصداقة الحميمة.

فعليك أن تحذر وتراقب سلوكك وأعمالك، فإن مكائد النفس والأساليب الشيطانية الماكرة خفيّة جداً، قلّ من استطاع الإفلات منها.

معالجة النفاق:

هناك طريقان لعلاج هذه الخطيئة الكبيرة:

الأول: التفكير في عاقبة النفاق والمفاسد التي تنتج عنه، فإن الإنسان إذا عرفه الناس منافقاً سقط من أعينهم، وفقد كرامته بين أصحابه، فيُبعد عن مجالسهم ويتخلف عن محافل أنسهم، ويقصر عن اكتساب الكمالات وبلوغ المقاصد. فعلى

(1) وسائل الشيعة، المجلد الثامن، الباب 143، من أبواب العِشرة، حديث 5.
(2) سورة الرعد، آية/25.
(3) سورة البقرة، آية/191.
(4) أصول الكافي، المجلد الثامن، كتاب الإيمان والكفر، باب النميمة، حديث 2. والقتّات هو النمام.

صاحب الضمير الحي أن يطهر نفسه من هذا العار الملطخ للشرف، لكيلا يبتلى بالذل. وكذلك في عالم الآخرة عالم كشف الأسرار. فهناك سيحشر مشوه الخلقة بلسانين من نار، ويعذب مع المنافقين والشياطين.

من عرف هذه النتيجة يجب أن يجتنب هذه الصفة ويسلك في المعالجة العملية.

الثاني: الأسلوب العملي لعلاج النفس، فإنه قد ثبت عبر التجربة والبراهين، أن النفس في هذه الدنيا تتفاعل مع ما يصدر عنها من أفعال وأقوال، صالحة أو طالحة، وكل ذلك يترك أثره فيها، فإن كان العمل صالحاً كان أثره نورانياً كمالياً، وإن لم يكن صالحاً كان أثره مظلماً انتقاصياً، حتى يصبح القلب كله نيّراً أو مظلماً، منخرطاً في سلك السعداء أو الأشقياء، فما دام الإنسان في هذه الدنيا فهو رهين عمله:

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ❖ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾.

ويتحقق العلاج العملي بأن يراقب حركاته وسكناته بكل دقة لفترة من الوقت، ويعمد إلى العمل بما يخالف رغبات النفس وتمنياتها، ويجاهد في جعل أعماله وأقواله في الظاهر والباطن واحدة، ويبتعد عن التظاهر والتدليس في حياته العملية.

ويطلب من الله تعالى خلال ذلك التوفيق، والعون، فإن فضل الله تعالى على الناس ورحمته بهم لا نهاية لها، فيشمل برحمته كل من خطا نحو الإصلاح، ويمد يد الرحمة لإنقاذه.

فإذا ثابر على ذلك بعض الوقت، كان له أن يرجو لنفسه الصفاء والانعتاق من النفاق وحالة ذي الوجهين.

النفاق مع الله تعالى:

إن من مراتب النفاق وذي اللسانين والوجهين النفاق مع الله تعالى، والتوجه

إلى مالك الملوك وولي النعم بوجهين، وصفة التلون هذه تكون بحيث نقضي عمرنا ونحن نظهر التمسك بكلمة التوحيد، وندعي الإسلام والإيمان، بل المحبة والمحبوبية، وغير ذلك من الإدعاءات على قدر ما نشتهي ونحب. فإذا كان هذا الظاهر مطابقاً للباطن، واتفق العلن مع السر، فهنيئاً لأرباب النعيم نعيمهم، وإن كان مثل كاتب هذه السطور الأسود الوجه القبيح المشوه الخلقة، فليعلم أنه من المنافقين وذوي الوجهين واللسانين، وعليه أن يبادر إلى علاج نفسه قبل فوات الأوان. وعندئذٍ لن تنفعنا نداءاتنا ﴿رب ارجعونِ﴾ فإننا سنجاب بـ«كلا».

يا من تتظاهر بالإسلام، لقد ورد في الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ

«المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه»[1].

فلماذا نبذل كل جهدنا لأذية ضعاف الناس دون أن يوقفنا شيء عن ظلمهم والإجحاف بحقهم؟ ومن لم تطله يدنا، نتناوله باللسان لنجرح به في حضوره أو غيابه، فنهتك أسرارهم ونكشف عن مكنوناتهم، ونغتابهم ونلصق التهم بهم، إذاً فادعاؤنا ـ نحن الذين لا يسلم المسلمون من أيدينا وألسنتا ـ للإسلام، مخالف للحقيقة.

يا من تدعي الإيمان وخضوع القلب في حضرة الله ذي الجلال، إذا كنت تؤمن بكلمة التوحيد ولا يعبد قلبك غير الواحد ولا يطلب غيره، ولا ترى الألوهية تستحق إلا لذاته المقدسة، وإذا كان ظاهرك وباطنك يتفقان فيما تدعي، فلماذا نجدك وقد خضع قلبك لأهل الدنيا كل هذا الخضوع؟ لماذا تعبدهم؟ أليس هذا لأنك ترى أن لهم تأثيراً في العالم وأن إرادتهم هي النافذة، وترى أن المال والقوة هما الطاقة المؤثرة والفاعلة؟ وأن ما لا ترى مؤثراً وفاعلاً في هذا العالم هو إرادة الحق؟ فتخضع لجميع الأسباب الطبيعية وتغفل عن المؤثر الحقيقي وعن مسبب جميع الأسباب، ومع كل ذلك تدعي الإيمان بكلمة التوحيد؟ إذن فأنت أيضاً خارج عن زمرة المؤمنين، وداخل في زمرة المنافقين ومحشور مع أصحاب اللسانين.

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتبا الإيمان والكفر، باب المؤمن وعلاماته، حديث 12.

أسئلة الدرس

1 ـ ما الفرق بين النفاق العملي والنفاق القولي؟

2 ـ ما الآية التي نستفيد منها أن النفاق من صفات الشيطان الملعون؟

3 ـ أذكر مفسدتين من مفاسد النفاق من بيان كيفية ارتباط النفاق بهما.

4 ـ ما هو النفاق مع الله تعالى وكيف يكون؟

5 ـ ما الذي نستفيده من الرواية عن رسول الله ﷺ «**المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه**» وما علاقتها بالنفاق؟

الدرس الثاني والعشرون

التوبة

عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

«إذا تاب العبد توبة نصوحاً أحبه الله فستر عليه في الدنيا والآخرة، فقلت: وكيف يستر عليه؟ قال: ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب، ثم يوحي إلى جوارحه: اكتمي عليه ذنوبه ويوحي إلى بقاع الأرض: اكتمي عليه ما كان يعمل عليك من الذنوب. فيلقى الله حين يلقاه وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب».

تعريف التوبة:

التوبة من الأمور المهمة والصعبة، وهي عبارة عن الرجوع من وحول المادة وظلمانيتها إلى نور النفس وروحانيتها التي كانت قد حجبتها الذنوب وغطتها غشاوة من المعاصي.

توضيحه: عندما يولد الإنسان تكون نفسها خالية من كل أنواع الكمال والجمال والنور والبهجة، كما أنها خالية من أضداد هذه الصفات ـ المذكورة الأربعة ـ فكأنها صفحة نقية خالية لم يُكتب فيها شيء ولكنها مستعدة لنيل أي صفة من الصفات فيمكن أن يملأ الإنسان هذه الصفحة بما يشاء، صفات رفيعة أو وضيعة.

ولكن فطرة الإنسان التي ترسم توجهه الأولي عجنت على الاستقامة ولها نورها الذاتي، وعندما يبدأ الإنسان بارتكاب المعاصي والسيئات يبدأ الظلام والسواد بالظهور في صفحة القلب هذه، فكلما ازدادت الذنوب والمعاصي كلما اتسعت رقعة السواد والظلام إلى أن تحتل القلب كله وتنطفئ نور الفطرة التي أودعها الله تعالى فيه ويبلغ مرتبة الشقاء الأبدي.

ولكن إذا استيقظ الإنسان قبل مرحلة الشقاء الأبدي ثم اجتاز منزل اليقظة

ودخل على منزل التوبة مستوفياً شروطها ـ التي سيأتي ذكرها ـ فسيزول هذا الظلام من نفسه وسيعود إلى نور الفطرة.

أركان التوبة:

هناك أركان وشرائط لا يمكن أن تكون توبة الإنسان صحيحة ومقبولة إذا لم تتوفر فيها هذه الشروط والأركان، وسنذكر هنا أهمها:

1 ـ **الشعور بالندم القلبي على ما ارتكبه من ذنوب ومعاصي**، وعلى تقصيره في أداء التكاليف الشرعية، ويعمل على تقوية الندامة في قلبه ويضرم النار فيه على غرار ﴿**نار الله الموقدة**﴾ فتحترق بنار الندامة هذه جميع المعاصي وتزول كدورة القلب وصدئه. وليعلم أنه إن لم يحرق قلبه بنار الندم التي هي باب من أبواب الجنة، فعليه أن يستقبل في ذلك العالم النار العاتية حيث ستفتح في وجهه أبواب جهنم!.

2 ـ **العزم على عدم العودة إلى الذنوب نهائياً.**

تذكير النفس:

لتحقيق هذين الركنين يجب على الإنسان أن يتذكر دائماً تأثير معاصيه في روحه، وقد ذكرت الروايات أن المعصية تحدث نقطة سوداء في قلب الإنسان وتأخذ هذه النقطة بالتوسع وتغطية القلب حتى يصل إلى مرحلة الشقاوة الأبدية التي لا رجعة فيها!

وتذكر عواقب المعاصي في عالم البرزخ ويوم القيامة كما ورد في الروايات الشرعية والأدلة العقلية، فإن للمعاصي في عالم البرزخ والقيامة صوراً تتناسب معها، تملك الإرادة والشعور، ويكون شغلها الشاغل تعذيب الإنسان المذنب والإساءة إليه! بل إن نار جهنم أيضاً تحرق الإنسان وتعذبه عن شعور وإرادة ووعي! ﴿**هل من مزيد**﴾. فإذا استطاع من خلال ذلك تحقيق ركني التوبة هذين يتيسر أمر سلوكه طريق الآخرة، وتغمره التوفيقات الإلهية ليصبح مصداقاً لقوله

تعالى: ﴿**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾، ومصداقاً لرواية الإمام الصادق عليه السلام التي ذكرناها في بداية الدرس.

شروط التوبة:

بالإضافة إلى الأركان التي ذكرناها فهناك شروط يجب أن تتحقق حتى تقبل التوبة عند الله تعالى، وهناك شرطان أساسيان لقبول التوبة، وقد جمعها أمير المؤمنين وملك الكلام علي بن أبي طالب عليه السلام في كلمته المروية عنه في نهج البلاغة:

فقد روي في نهج البلاغة أن قائلاً قال بحضرته عليه السلام: أستغفر الله، فقال له:

«ثكلتك أمك أتدري ما الاستغفار عليه السلام إن الاستغفار درجة العليين وهو اسم واقع على ستة معان: أولها الندم على ما مضى، الثاني العزم على ترك العود إليه أبداً، والثالث أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم حتى تلقى الله سبحانه أملس ليس عليك تبعة. الرابع أن تعمد إلى كل فريضة عليك ضيعتها فتؤدي حقها. والخامس أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان حتى تلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد. والسادس أن تذيق الجسم ألم الطاعة كما أذقته حلاوة المعصية فعند ذلك تقول أستغفر الله».

فبالإضافة إلى ركني التوبة اللذين مر ذكرهما يشتمل هذه الحديث على شرطي القبول أيضا وهما:

1 ـ **إرجاع الحقوق لأهلها**، فعلى الإنسان التائب أن يرد كل ما أخذه من الناس من دون حق، وعليه أن لا يتوانى في ردها أو طلب السماح منهم، وليعلم أن أصحاب الحقوق سيطالبونه بها يوم القيامة ولا وسيلة له لأدائها هناك سوى أن يتحمل ذنوب الآخرين ويدفع إليهم أعماله الحسنة!

2 ـ **تأدية حقوق الخالق له سبحانه وتعالى**، فيقضي ما فاته من الفرائض الإلهية ويؤدي ما لم يفت وقته بعد.

سهولة التوبة لولا الوسوسة:

وعليك أن لا تيأس من رحمة الله ولطفه ولا تسمح للشيطان والنفس الأمارة بالهيمنة والوسوسة في قلبك،فيصوران التوبة أمراً شاقاً وصعباً ويصرفانك عنها، حتى وإن كانت الذنوب والتقصيرات كثيرة وجسيمة، فإن الله تعالى يسهل عليك الطريق، ويأخذ بيدك إن بدأت السير ولو كانت بدايتك بخطوات قليلة حسب استطاعتك، واعلم أن اليأس من رحمة الله تعالى من أعظم الذنوب.

شروط كمال التوبة:

إذا تحققت الأركان والشروط المتقدمة فإن التوبة ستكون مقبولة بإذن الله تعالى، ولكن مع ذلك هناك شروط يمكن إضافتها إلى التوبة لتوصلها إلى الكمالوتجعلها على أفضل وجه ـ فلكل منزل من منازل السالكين مراتب ودرجات تختلف حسب اختلاف قلوبهم ـ وهما شرطان أيضاً، ورد ذكرهما عن علي عليه السلام في الرواية السابقة:

1 ـ محو آثار الذنوب النفسية: إن لكل معصية ولهو انعكاس وأثر في الروح، فإن هذه المتعة الطبيعية التي عاشها الإنسان مع المعصية ستبقى تلقي بظلالها على نفسه وروحه وتجذبها إلى المعاصي، وما دامت هذه الظلال عالقة بها فإن النفس ترغب إليها، ويعشقها القلب، ويُخشى من لحظة طغيان النفس وتمردها على صاحبها ـ والعياذ بالله ـ وهذه الآثار ستبقى حتى بعد زوال المعصية، فعلى الإنسان أن يهتم بإزالتها أيضاً، فيتدارك أي نقص طرأ على نفسه نتيجة حالة اللهو التي عاشها مع المعصية، فلا بد على السالك لسبيل الآخرة والتائب عن المعاصي أنيذيق الروح ألم الرياضة الروحية ومشقة العبادة، فإذا سهر ليلة في المعصية تداركها بليلة من العبادة، وإذا عاش يوماً واحداً مع اللذائذ المادية تداركه بالصوم والمستحبات المناسبة حتى تطهر النفس من كل آثار المعاصي وتبعاتها،فتعود النفس إلى صفائها كما كانت قبل المعصية، وتعود الفطرة إلى روحانيتها الأصيلة. وتحصل له الطهارة الكاملة.

فلا بد للتائب أن ينتفض ويستأصل تلك الآثار ويقوم بالرياضة الروحية من العبادات والمناسك حتى تزول معها كل تبعات ومضاعفات الخطايا والآثام.

2 ـ **محو آثار الذنوب الجسمية**: إن بعض الذنوب بالإضافة لآثارها النفسية لها آثار بدنية أيضاً، كأكل المال الحرام الذي ينبت اللحم من خلاله، إن هذه الآثار البدنية التي نشأت بفعل الذنوب والمعاصي ينبغي استئصالها أيضاً كما يستأصل الآثار النفسية، وذلك من خلال ممارسة الرياضة الجسمية كالإمساك عن أكل المقويات والمنشطات والصيام المستحب أو الواجب إذا كان في ذمته صيام واجب، فيذيب اللحوم التي نشأت على جسمه من الحرام والمعصية أيام الخطايا والآثام.

ولا بد في غضون اشتغاله بهذه الأمور من التفكر والتدبر في نتائج المعاصي وشدة عقاب الحق المتعالي ودقة الميزان وألم البرزخ، وليشعر قلبه أن كل ذلك نتيجة الأعمال القبيحة والمخالفة لمالك الملك، لعله يحصل له نفور من المعاصي وارتداع نهائي عنها.

ما هو المطلوب في التوبة:

ليس المطلوب في التوبة بدايةً الحصول على مراتب الكمال التي ذكرناها، فهي من متممات التوبة ولكنها قد تصعب على البعض، فيظن أن عملية التوبة أمر شاق، فيعرض عنها ويتركها! أو يقع في موضوع التسويف والتأجيل حتى يكتب من الأشقياء!

إن كل خطوة مهما كانت صغيرة في طريق السلوك إلى الآخرة هي أمر مطلوب ومحبوب عند الله سبحانه وتعالى، وعندما يضع الإنسان قدمه على الطريق فإن الله سيأخذ بيده ويسهل له الأمور بعد ذلك. وقارن الأمور الأخروية بالأمور الدنيوية، فإن العقلاء إذا لم يستطيعوا أن يحققوا هدفهم الأعلى والأرفع، فهم يطمحون بالحصول على المرتبة الأقل ولا يستسلمون أبداً.

وأنت أيضاً إذا لم تستطع أن تحقق التوبة الكاملة، فلا تعدل عن التوبة ولا تعرض عنها وحاول أن تحقق المستوى المستطاع منها.

إن صعوبة الطريق يجب أن لا تمنع الإنسان من السير، فإن الهدف مهم وعظيم جداً، وكلما عظم الهدف في عين الإنسان سهلت عليه الطريق وهانت في عينه مهما كانت صعبة، وأي شيء أعظم من النجاة الأبدية والروح والريحان الدائميان؟ وأي بلاء أعظم من الهلاك الدائمي والشقاء السرمدي؟ إن هذه التوبة ستنقل الإنسان من الشقاء الأبدي إلى السعادة المطلقة، فإذا كان الهدف عظيماً إلى هذا المستوى، فلا بأس بالمعاناة والتعب لأيام قليلة.

الاستغفار:

إن طرق باب مغفرة الله تعالى واللجوء إلى صفة الغفارية في الله تعالى من الأمور الهامة التي يجب أن يقدم عليها التائب، ويطلب فتح هذا الباب له للحصول على هذا المقام، بلسان مقاله وحاله في السر والعلن وفي الخلوات، والطلب منه تعالى بكل مذلة ومسكنة وتضرع وبكاء أن يستر عليه ذنوبه وآثارها، فإن مقام الغفارية والستارية للذات المقدسة يستدعي ستر العيوب وغفران تبعات الذنوب، فإن الصور المعنوية للإنسان أشبه بالولد الذي يولد له في الدنيا، بلأشد التصاقاً به! وحقيقة التوبة والاستغفار بمثابة قطع كل صلة مع هذا المولود ونفيه.

إن الله سبحانه وتعالى بسبب مغفرته وستره يقطع كل صلة بين هذا الوليد المشؤوم وبين الإنسان، ويحجب عن تلك المعصية كل المخلوقات التي اطلعت عليه من الملائكة، وكتّاب صحائف المعاصي، والزمان والمكان وأعضاء نفس الإنسان وجوارحه، وينسيهم جميعاً تلك المعصية كما أشير إليه في الحديث الشريف «**يُنسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب**» ويحتمل أن يكون معنى النسيان هنا هو الوحي لهذه المخلوقات بكتمان المعاصي، والوحي يتحقق بأحد شكلين: إما إصدار الأمر لهذه المخلوقات بعدم الإدلاء بالشهادة، أو رفع الآثار التي تركتها المعاصي

على الأعضاء والتي بها تتم الشهادة التكوينية. فمع عدم التوبة يمكن أن يشهد عليه كل عضو بلسان مقاله أو حاله.

جميع الموجودات ذات علم وحياة:

إن لكل واحد من الموجودات علم وحياة ومعرفة، بل أنها جميعاً تحظى بالمعرفة لمقام الحق المقدس جل وعلا، فإن الوحي لبقاع الأرض والأعضاء والجوارح بالكتمان وإطاعتها للأمر الإلهي، وتسبيح الموجودات بأسرها الذي نص عليه القرآن الكريم وأوردته الأحاديث الشريفة كثيراً، كل ذلك يدل على علم وشعور وحياة الموجودات، بل دليل على الارتباط الخاص بين الخالق والمخلوق.

﴿يسبح لله ما في السماوات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم﴾[1].

أسئلة الدرس

1 ـ عرف التوبة مع بعض الشرح بأسلوبك الخاص.
2 ـ أذكر أركان التوبة الأساسية مبيناً أهمية الركن الأول منها.
3 ـ ما هو أثر المعاصي في الروح وعاقبتها في البرزخ والقيامة؟
4 ـ ما السبب في وجود آثار نفسية للذنوب، وكيف يمكن التخلص من هذه الآثار؟
5 ـ إذا غفر الله تعالى لعبده، فكيف سيستر عليه هذه الذنوب ـ وهو الستار ـ؟

(1) سورة الجمعة آية/1.

القسم الثالث

كمال النفس

- التحلية -

الدرس الثالث والعشرون

الكمال والحرية

عن الإمام علي عليه السلام:

«**الحر حر وإن مسّه الضر، والعبد عبد وإن ساعده القدر**».

الإنسان بفطرته يحب الكمال التام المطلق:

إن الله سبحانه وتعالى فطر الإنسان على عشق الكمال التام المطلق وجبل الذات الإنسانية على ذلك، وهذا ما يحس به كل إنسان بوجدانه، فيجد قلبه يتوجه شطر الجميل على الإطلاق، والكامل من جميع الوجوه.

غير أن كل امرئ يرى الكمال في شيء ما حسب حاله ومقامه، فيتوجه قلبه إليه: فأهل الآخرة يرون الكمال في مقامات الآخرة ودرجاتها، فقلوبهم متوجهة إليها .وأهل الله يرون الكمال في جمال الحق، والجمال في كماله سبحانه يقولون:

﴿**... وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض...**﴾[1].

ويقولون:

«**لي مع الله حال**»[2].

فهم محبون للإرتباط به تعالى، عاشقون لصفاته الجميلة.

وأهل الدنيا عندما توهموا أن الكمال في لذائذ الدنيا، وتبين لأعينهم جمالها، اتجهوا فطرياً نحوها. فسعي أهل الدنيا وراءها هو تطبيق خاطئ لفطرتهم، هذه الفطرة وذاك العشق الذي يربطهم بالكمال المطلق، والذي يعتبر كل ما عداه مجرد أمر ثانوي فتعلق القلب بهذه الأمور الثانوية العرضية هو خطأ في فهم الكمال ومعرفته ليس إلاّ.

---

(1) سورة الأنعام، آية/79.

(2) إشارة إلى الحديث المشهور عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لي مع الله وقت لا يسعني فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل**».

أسر الشهوة أساس البلاء ومانع الكمال:

إن الإنسان مادام يرزح في قيود النفس والشهوات، ومادامت سلاسل الغضب والشهوة الطويلة على رقبته، لا يستطيع أن يبلغ المقامات المعنوية والروحانية، ولا تظهر فيه السلطة الباطنية للنفس، وإرادتها الثابتة، ولا يحصل له مقام استقلال النفس وعزتها الذي هو أرقى مقام لكمال الروح، بل إن هذا الأسر والرق يقيده ولا يسمح له بالتمرد على النفس في جميع الأحوال.

وإذا قويت هيمنة النفس الأمارة والشيطان في الباطن، وانقادت جميع القوى لهما في العبودية والطاعة وأبدت لهما الخضوع والتسليم التامين، لما اقتصرتا على المعاصي بل دفعتا الإنسان من المعاصي الصغيرة رويداً رويداً إلى المعاصي الكبيرة، ومنها إلى ضعف في العقائد، ثم إلى الأفكار المظلمة، ثم إلى متاهات الجحود، ثم إلى بغض وعداوة الأنبياء والأولياء، وستكون النفس عاجزة أمام كل ذلك بسبب حالة الرق التي تعيشها وعدم قدرتها على مخالفة رغباتها. وستكون عاقبة الأمر وخيمة جداً. وستدفع الإنسان إلى أماكن خطيرة ومخيفة.

أسر الشهوة مصدر كل أسر:

إن الإنسان إذا أصبح مقهوراً لهيمنة الشهوة والميول النفسية، كان رقه وعبوديته وذله بقدر مقهوريته لتلك السلطات الحاكمة عليه.

ومعنى العبودية لشخص هو الخضوع التام له وإطاعته، فكلما توحي هذه السلطات بشيء للإنسان أطاعها بمنتهى الخضوع، ويبلغ الأمر إلى مستوى يفضّل طاعها عن طاعة خالق السماوات والأرض، وعبوديتها على عبودية مالك الملوك الحقيقي. فتزول عن نفسه العزة والكرامة والحرية، ويحلّ محلها الذل والهوان والعبودية. فيخضع لأهل الدنيا وينحني أمام ذوي الجاه، ويستسيغ الهوان لأجل الترفيه عن البطن والفرج، كل ذلك يحدث منه ما دام أسيراً لهوى النفس والشهوة.

هذا على مستوى المفاسد الدنيوية، وأما في دار الحق فكيف ستتجلى صورة هذا الأسر وكيف ستظهر أغلال الشهوات؟ لعل هذه السلسلة التي طولها سبعون ذراعاً والتي أخبر عنها الله تعالى والتي تكون أصفاداً وأغلالاً لنا في يوم الآخرة هي الصورة التي سيظهر بها هذا الاسر والرق في ظل أوامر القوة الشهوية والغضبية.

يقول الله تعالى:

﴿ووجدوا ما عملوا حاضرا﴾[1].

وفي آية أخريك

﴿لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت﴾[2].

فما يصل إلينا في ذلك العالم هو صورة أعمالنا.

فعليك أن تمزق سلاسل الشهوة والأهواء المتعرجة بعضها على بعض، وتحطم أصفاد القلوب وتخرج من قيود الأسر ولتكن حراً في هذا العالم لتكون حراً في ذلك العالم.

كيف نتحرر من أسر الشهوة عليه السلام:

إن الإنسان العاقل لا بد له من السعي واللجوء إلى كل سبيل لإنقاذ نفسه من الأسر، والنهوض أمام النفس الامارة والشيطان الباطني، ما دامت الفرصة سانحة وقواه الجسدية سليمة، ومادام على قيد الحياة، وقواه لم تتسخر كلياً، فليتأمل في أحوال نفسه وأحوال الماضين ويتمعن في سوء العاقبة، ويُفهم نفسه أن هذه الأيام القليلة تبلى، ويوقظ قلبه ويفهمهاالحقيقة التالية المنقولة عن الرسول الأكرم ﷺ حيث خاطبنا قائلاً: «**الدنيا مزرعة الآخرة**»[3]، فإذا غشينا الموت وحلّ العالم الآخر انقطعت أعمالنا وذهبت آمالنا نهائياً.

(1) سورة الكهف، آية/49.

(2) سورة البقرة، آية/286.

(3) إحياء العلوم للغزالي، المجلد الرابع، ص14.

إن معالجة النفس لا تكون إلا بواسطة أمرين:

العمل: فعليه أن يبادر إلى ترويض نفسه والسيطرة عليها من خلال الإلتزام بالشرع المقدس، ومن خلال مخالفة النفس فترة من الزمن، يتم خلالها ردع النفس وترويضها تجاه الحب المفرط للدنيا والشهوات والأهواء، حتى تتعود على الخيرات والكمالات.

العلم: يجب تلقين النفس وإبلاغ القلب أن جميع الناس محتاجون فقراء ضعاف عاجزون، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، فكيف يملكون لغيرهم؟! إنهم أتفه من أن تنعطف النفس إليهم ويخشع القلب أمامهم. هم جميعاً متشابهون في الحاجة إلى الغني المطلق القادر على جميع الأمور.

إن القادر الذي منحهم العزة والشرف والمال والوجاهة قادر على منح أي شخص أراد.

أثر التحرر من أسر الشهوة:

من العار حقيقة على الإنسان أن يتذلل وينحط في سبيل بطنه وشهوته، ويتحمل الامتنان من مخلوق فقير ذليل لا حول له ولا علم ولا وعي.

إذا أردت ـ أيها الإنسان ـ أن تقبل المنة فلتكن من الغني المطلق وخالق السماوات والأرض، فإنك إذا وجهت وجهك إلى الذات المقدسة، وخشع في محضره قلبك، فسيكون لذلك العديد من الآثار العظمية التي نذكر منها:

أ ـ ستخلع من رقبتك طوق العبودية لغير الله سبحانه وتعالى، وستتحرر من العالمين.

ب ـ نتيجة لعبودية الحق والإنتباه إلى نقطة واحدة مركزية، وإفناء كل القوى والسلطات ـ النفس وأهوائها ـ في السلطة الإلهية المطلقة، تنجم حالة في القلب تقهر العوالم الأخرى وتستولي عليها، وتظهر للروح حالة من الشموخ والعظمة تأبى الطاعة إلا أمام الرب سبحانه وأمام من تكون طاعتهم طاعة ذات ا لحق

المقدس. ولو فرض أنه ـ وجراء ظروف طارئة ـ محكوماً لأحد، لما تزلزل قلبه منه ولحافظ على حرية نفسه واستقلالها، كما كان الشأن في النبي يوسف ولقمان حيث لم تنعكس سلباً عبوديتهما الظاهرية على حرية وانطلاقة نفسيهما.

كم من أصحاب القدرة والسلطة الظاهرية لم يستنشقوا نسمة حرية النفسوقيمتها، فتراهم أذلاء وعبيداً للنفس وأهوائها، يتزلفون نحو المخلوق التافه؟!.

في رواية عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام:

«إني لآنف أن أطلب الدنيا من خالقها فكيف من مخلوق مثلي»[1].

ج. من ثماره أيضاً الغنى ـ غنى النفس ـ : إن عدم الحاجة هو من حالات الروح، وهو غير مرتبط بأمور مادية خارج الإنسان. نحن نرى أناساً من أهل الثراء والمال والجاه يتفوهون بكلمات يندى لها الجبين ولا يقولها المستجدي المتهتك، إنه مسكين ضربت على روحه الذلة والمسكنة.

إن شعب اليهود بالنسبة لعددهم يعتبرون من أغنى شعوب الأرض، ولكنهم يعيشون طيلة حياتهم في الشقاء والتعاسة والشدة والهوان، وتبدو على ملامحهم الحاجة والفقر والذل والمسكنة، وهذا كله سببه الفقر النفسي والذل الروحي.

فيما نرى في أصحاب الزهد وذوي الحياة البسيطة أشخاصاً قلوبهم مفعمة بالغنى والكفاف، ويلقون نظرة اللامبالاة على الدنيا وكل ما فيها ولا يجدون أحداً أهل للاستجداد به إلا الحق المقدس المتعالي.

أيها العزيز على الرغم من أن هذا العالم ليس بدار الجزاء والمكافأة وإنما هو سجن المؤمن، فلو تحررت من أسر النفس وأصبحت عبداً للحق المتعالي وجعلت القلب موحداً، وأجليت مرآة روحك من غبار النفاق، وأرسلت قلبك إلى النقطة المركزية للكمال المطلق لشاهدت بعينك آثار ذلك في هذا العالم، ولتوسع قلبك

(1) علل الشرائع، المجلد الأول، باب 165، العلة التي من أجلها سمي علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام.

حتى يصبح محلاً لظهور السلطة الإلهية التامة وهو ما لا تسعه جميع العوالم «**لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن**»[1] . ولشعرت غنى واضحاً في النفس، حيث لم تعبأ بكل العوالم الغيبية والمادية، ولأصبحت إرادتك قوية،وكان يقال في بعض الأشعار الفارسية ما معناه: هل رأيت تحليق الطير؟، إنسلخ من أغلال الشهوة حتى ترى تحليق الإنسان.

أسئلة الدرس

1 ـ ما السبب في توجه أهل الآخرة للآخرة وأهل الله لله، وأهل الدنيا للدنيا؟

2 ـ بماذا يتحقق الأسر الحقيقي للنفس؟

3 ـ ما هو أثر وقوع النفس أسيرة الهوى والشهوة؟

4 ـ ما هو الطريق العملي للتحرر من أسر الشهوة؟

5 ـ أذكر أثرين من آثار التحرر من أسر الشهوة مع توضيحهما على طريقتك.

(1) غوالي اللثالي، المجلد الرابع، ص7.

الدرس الرابع و العشرون

ذكر الله تعالى

عن الإمام الباقر عليه السلام:

«مكتوب في التوراة التي لم تغير أن موسى عليه السلام سأل ربه فقال: يا رب، أقريب أنت مني فأناجيك، أم بعيد فأناديك؟ فأوحى الله عز وجل إليه: يا موسى أنا جليس من ذكرني. فقال موسى: فمن في سترك يوم لا ستر إلا سترك. فقال: الذين يذكرونني فأذكرهم ويتحابون فيّ فأحبهم فأولئك الذين إذا أردت أن أصيب أهل الأرض بسوءٍ ذكرتهم فدفعت عنهم بهم»[1].

إحاطة الله تعالى:

يذكر العلامة المحقق المجلسي رضوان الله تعالى عليه في شرح الحديث السابق عن الباقر عليه السلام أن السبب بالسؤال عن آداب الدعاء هو أنني إذا نظرت إليك فأنت أقرب من كل قريب وإذا نظرت إلى نفسي أجدني في غاية البعد عنك، فلا أدري في دعائي أنظر إلى حالي أو إلى حالك؟[2].

ومن المحتمل أن النبي موسى عليه السلام ـ في الحديث المذكور ـ يعرض عجزه عن كيفية دعائه لله تعالى فيقول:

(إلهي أنت منزه من الإتصاف بالقرب والبعد، فأنا متردد لا أجد دعاءً يليق بعظمتك وجلالك، فاسمح لي أن أناديك وعلمني كيفية ندائك واهدني إلى ما يتناسب ومقام قدسك في هذا المجال).

والسبب في التردد أن الله تعالى له إحاطة وقيمومية، وسعة وجودية تعم جميع

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، الدعاء، باب ما يجب من ذكر الله في كل مجلس، حديث 4.
(2) راجع مرآة العقول، المجلد 12، ص122.

دائرة الوجود، وساحته المقدسة تتنزه عن القرب والبعد الحسيان والمعنويان، لأن ذلك يستلزم نوعاً من التحديد والتشبيه، والحق المتعالي منزه عن ذلك.

وما ورد في بعض الآيات الشريفة من الكتاب الإلهي الكريم من توصيف الحق المتعالي بالقرب هو من باب المجاز والإستعارة.

كقوله تعالى:

﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾[1].

وقوله ـ عزّ من قائل ـ:

﴿نحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[2].

خصائص ذكر الله تعالى:

يستفاد من هذا الحديث الشريف أن لذكر الله تعالى خصائص، أهم هذه الخصائص:

ـ إن ذكر العبد لله، يبعث على ذكر الله لعبده ـ وهذا أهم الخصائص ـ، وهناك روايات أخرى تشير إلى هذا الأمر، وفي القرآن الكريم:

﴿كذلك أتتك آياتنا فنسيتا وكذلك اليوم تنسى﴾[3].

فكما أن نسيان الآيات والعمى الباطني عن رؤية مظاهر جمال الحق وجلاله يسبب العمى في العالم الآخر، يكون التذكر للآيات والاسماء والصفات وتذكر الحق سبحانه وجماله وجلاله باعثاً على حدة في البصيرة وإزاحة للحجب بقدر قوة التذكر ونورانيته.

ـ ومن خصائص الذكر أيضاً أن الله سبحانه وتعالى يرفع لكرامتهم العذاب عن عباده، فما دام الذاكرون أحياء بين العباد لا يُنزل الله سبحانه العذاب على الناس.

---

(1) سورة البقرة، آية/168.

(2) سورة ق، آية/16.

(3) سورة طه، آية/126.

وللتذكر درجات ثلاث:

أ. تذكر آيات الحق سبحانه، حتى يصير هذا التذكر صفة راسخة في الإنسان، فيرى من خلال الآيات جمال الحق.

ب. تذكر الاسماء والصفات، الذي يبعث على مشاهدة الحق في تجليات أسمائه وصفاته.

ج. تذكر ذات الله عز شأنه من دون حجاب الآيات والأسماء والصفات، وهو يوجب رفع الحجب بأسرها.

ويعتبر هذا التفسير واحداً من التوجيهات والتفسيرات للفتوحات الثلاثة التي هي قرة عين العرفاء والأولياء وهي: الفتح القريب، الفتح المبين، الفتح المطلق، وهو الذي يسمى فتح الفتوح.

الفرق بين مقام التفكر والتذكر:

التفكر هو مرحلة البحث عن المحبوب وطلبه، وأما التذكر فهو الوصول إلى المطلوب والتعرف على الحق عز وجل،، فمادام الإنسان يطلب ويبحث يكون محجوباً عن مطلوبه وعندما يصل إلى محبوبه يتحرر من عناء البحث والتفتيش، وبذلك يتضح أن التذكر هو من نتائج التفكر.

كلما كان التفكر قوياً وكاملاً، ستكون نتيجته ـ وهي التذكر ـ أقوى وأكمل، حتى يوصل التفكر الإنسان إلى التذكر التام للمعبود، وهذا النوع من التفكر لا تقاس فضيلته بأي عمل آخر.

صحيح أن العبادة أيضاً توصل إلى التذكر، ولكن التفكر يختصر الطريق، ففي الأحاديث الشريف أن تفكر ساعة أفضل من عبادة سنة أو ستين أو حتى سبعين عاماً. فلعل تفكر ساعة واحدة يفتح على الإنسان أبواباً من المعارف لا تفتحها عبادة سبعين سنة، أو إن في تفكر ساعة واحدة تذكّر للإنسان بالمبدأ سبحانه ما لا يحصل خلال فترة سنين عديدة من العناء والجهد.

التذكر ضروري لجميع الطبقات:

إن تذكر الحبيب سبحانه، والتفكر فيه دائماً، يثمر نتائج كثيرة لكافة طبقات الناس.

أما أولياء الله تعالى الكاملون، فإن تذكر الحبيب سبحانه غاية آمالهم، وفي ظل التذكر يبلغون جمال هذا الحبيب، هنيئاً لهم.

وأما عموم الناس والمتوسطون منهم، فهو أفضل مصلح للأخلاق والسلوك وللظاهر والباطن.

إذا عاش الإنسان مع الحق سبحانه في جميع الأحوال، لأحجم عن الأمور التي تسخطه سبحانه، وردع نفسه عن الطغيان. إن المشاكل والمصائب التي تدفعنا إليها النفس الامارة والشيطان الرجيم قد نشأت بسبب الغفلة عن ذكر الله وعذابه وعقابه.

إن الغفلة التي تضاعف كدورة القلب وتمكن النفس والشيطان من التحكم في الإنسان وتسبب زيادة المفاسد على مر الأيام. والتذكر للحق جل شأنه يبعث على صفاء النفس ونقائها، ويحرر الإنسان من أغلال الأسر ويخرج حب الدنيا ـ الذي هو رأس الخطايا ومصدر السيئات ـ من القلب، ويجعل الهموم هماً واحداً، والقلب نظيفاً طاهراً جاهزاً لاستقبال صاحبه ـ وهو الحق تعالي ـ.

الذكر التام المحيط بكل أطراف مملكة الجسم

إن ذكر الحق تعالى والتذكر لذاته المقدس من صفات القلب، فالقلب هو الذي يتذكر، فإذا تذكر ترتبت عليه جميع الآثار المذكورة للذكر.

ولكن الأفضل أن يعقب الذكر القلبي الذكر اللساني أيضاً. وأفضل وأكمل مراتب الذكر كافة هو الذكر الساري على ظاهر الإنسان وباطنه، سرّه وعلنه، فتكون الصورة الباطنية للقلب والروح صورة تذكر المحبوب، وتتفتح أعضاء الانسان وجوارحه على الحق تعالى. ولو أن القلب انفتح حقاً أمام الذكر، لجرى

حكم الذكر في كل الظاهر والباطن، ولكانت حركة وسكون العين واللسان واليد والرجل، وأفعال كل القوى والجوارح مع ذكر الحق، ولم تقم تلك القوى ـ الظاهرية والباطنية ـ بأي فعل يخالف الوظائف الشرعية المقررة، فتكون حركاتها وسكناتها مبدوّة ومختومة بذكر الحق، وتنفذ ﴿**بسم الله مجريها ومرسيها**﴾[1] في جميع أطراف جسم الإنسان ليحيط بقواه كلها الظاهرية والباطنية.

وكلما حصل انخفاض في هذا المستوى الرفيع، وقلّ نفوذ الذكر، انتقص ـ وبنفس النسبةـ من كمال الإنسان، وأثر نقصان كل من الظاهر والباطن في الآخر.

ذكر الله باللسان:

إن ظاهر الإنسان وباطنة وكل أعضاءه وقواه مترابطة ببعضها البعض، ومن هنا يُعلم أن ذكر الحق باللسان ـ وإن كان قالباً لا روح فيه ـ هو أمر نافع ومجدٍ أيضاً، لأنه:

أولاً: قام اللسان بوظيفته بواسطة ذكره.

ثانياً: يمكن أن يصير الذكر باللسان سبباً لتفتح لسان القلب على الذكر أيضاً بعد فترة من المواظبة والإستمرار عليه بشروطه. فكما أن المعلم يكرر الكلمة أمام الطفل حتى ينفتح لسانه عليها ويرددها ثم إذا نطق الطفل صار المعلم يكرر معه فيزول عنه التعب وكأن مدداً يصله من الطفل، كذلك الذاكر يجب أن يعلم قلبه على الذكر، فإذا انفتح القلب على الذكر صار لسان الفم يتبع القلب، وسيزول عناء تكرار الذكر بعد أن استمد اللسان من القلب أو من الغيب[2].

---

(1) سورة هود آية/41.

(2) راجع الأحاديث حول هذا الموضوع في الكافي، المجلد الثاني، كتاب الدعاء، باب ما يجب من ذكر الله في كل مجلس.

أسئلة الدرس

1 ـ كيف تفسر قول نبي الله موسى عليه وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام:

«يا رب، أقريب أنت مني فأناجيك، أم بعيد فأناديك»؟

2 ـ اذكر درجات التذكر الثلاث مع بيان الفرق بينها.

3 ـ ما الفرق بين التفكر والتذكر؟

4 ـ ما هو دور التذكر عند عموم الناس أصحاب المرتبة المتوسطة؟

5 ـ هل يوجد فائدة من ذكر الله تعالى باللسان فقط؟ بيّن الفائدة إن وُجدت.

الدرس الخامس والعشرون

الشكر

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال:

«كان رسول الله صلى الله عليه وآله عند عائشة ليلتها فقالت: يا رسول الله لِمَ تتعب نفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر[1]، فقال: يا عائشة! ألا أكون عبداً شكوراً؟ قال: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يقوم على أطراف أصابع رجليه فأنزل الله - سبحانه وتعالى - ﴿طه ❖ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾»[2].

حقيقة الشكر:

الشكر هو عبارة عن تقدير نعمة المنعم، وتظهر آثار هذا التقدير في القلب بصورة الخضوع والخشوع والمحبة والخشية وأمثالها، وعلى اللسان بصورة الثناء والمدح والحمد، وفي الأفعال والأعمال بصورة الطاعة واستعمال الجوارح في رضا المنعم.

يقول المحقق الطوسي قدس سره:

«الشكر أشرف الأعمال وأفضلها، واعلم أن الشكر مقابلة النعمة بالقول والفعل والنية وله أركان ثلاثة:

الأول: معرفة المنعم وصفاته اللائقة به، ومعرفة النعمة من حيث إنها نعمة ولا تتم تلك المعرفة إلا بأن يعرف أن النعم كلها جليها وخفيها من الله سبحانه وأنه المنعم الحقيقي وأن الأوساط كلهم منقادون لحكمه مسخرون لأمره.

الثاني: الحال التي هي ثمرة تلك المعرفة، وهي الخضوع والتواضع والسرور

---

(1) إشارة إلى قوله تعالى ﴿ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر﴾ سورة الفتح آية 2.

(2) أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب الإيمان والكفر، باب الشكر، حديث 6.

بالنعم، من حيث إنها هدية دالة على عناية المنعم بك وعلامة ذلك أن لا تفرح من الدنيا إلا بما يوجب القرب منه.

الثالث: العمل الذي هو ثمرة تلك الحال فان تلك الحال إذا حصلت في القلب حصل فيه نشاط للعمل الموجب للقرب منه، وهذا العمل يتعلق بالقلب واللسان والجوارح.

أما عمل القلب فالقصد إلى تعظيمه وتحميده وتمجيده، والتفكر في صنائعه وأفعاله وآثار لطفه، والعزم على إيصال الخير والإحسان إلى كافة خلقه، وأما عمل اللسان فإظهار ذلك المقصود بالتحميد والتمجيد والتسبيح والتهليل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى غير ذلك، وأما عمل الجوارح فاستعمال نعمه الظاهرة والباطنة في طاعته وعبادته، والتوقي من الاستعانة بها في معصيته ومخالفته كاستعمال العين في مطالعة مصنوعاته، وتلاوة كتابه، وتذكر العلوم المأثورة من الأنبياء والأوصياء عليهم السلام وكذا سائر الجوارح».

كيف يكون الشكر؟

إن شكر نعم الحق المتعالي سبحانه، الظاهرية منها والباطنية، من المسؤوليات اللازمة للعبودية، فعلى كل شخص أن يشكر ربه سبحانه.

وعلينا أن نعرف أن شكر النعم يكون بحسب مقدرتنا المتيسرة وهي محدودة، فلا أحد من المخلوقين يستطيع أن يؤدي حق شكره تعالى. والسبب في ذلك أن كمال الشكر يتبع كمال التعرف على المنعم وإحسانه، وحيث أن أحداً لم يعرفه حق معرفته، لم يستطع أحد النهوض بحق شكره.

إن منتهى ما يصل إليه الإنسان من الشكر هو أن يعرف عجزه عن النهوض بحق شكره تعالى، كما أن غاية العبودية في معرفة الإنسان بعجزه عن القيام بحق العبودية له تعالى. ومن هذا المنطلق اعترف الرسول الأكرم ﷺ بالعجز، مع أن شخصاً لم يشكر ربه ولم يعبده بمثل شكر ذلك الوجود المقدس وعبوديته.

وبعد أن عرفنا عجزنا، فما هو المتيسر من الشكر المطلوب؟

يكون العبد شكوراً، إذا علم ارتباط الخلق بالحق، وعلم انبساط رحمة الحق عليه من أول ظهوره إلى ختامه، علم بداية الوجود ونهايته على ما هو عليه. فما دامت حقيقة سريان ألوهية الحق لم تنتقش في قلب العبد بعد ولم يؤمن بأنه لا مؤثر في الوجود إلا الله، ولا تزال غبرة الشرك والشك عالقة في قلبه، لا يستطيع أن يؤدي شكر الحق المتعالي بالشكل المطلوب. ومثل هذه المعرفة لا تحصل إلا للخلص من أولياء الله الذين كان أشرفهم وأفضلهم الذات المقدس خاتم الأنبياء ﷺ، كما يقول الحق المتعالي:

﴿وقليل من عبادي الشكور﴾[1].

إن الذي يعتقد أن المخلوقات تأثر بصورة مستقلة، ولا يُرجع النعم إلى ولي النعم ومصدرها، يكون كافراً بنعم الحق المتعالي، إنه قد نحت أصناماً وجعل لكل واحدٍ منها دوراً مؤثراً. قد ينسب الأعمال إلى نفسه وقد يتحدث عن فعالية طبائع عالم الكون، ويجرد الحق عن التصرف ويقول بأن يد الله مغلولة:

﴿غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا﴾[2].

مراتب الشكر:

إن شكر العباد للمنعم تعالى، يختلف مستوياته ومراتبه بين فرد وآخر، وهناك عوامل تؤثر في اختلاف المراتب، منها:

ـ ما ذكرناه فيما سبق من أن شكر المنعم تابع لمعرفته، فكلما ازداد الإنسان معرفة بالمنعم ازدادت مرتبة شكره له. فمقدار المعرفة يؤثر في مستوى الشكر ودرجته.

ـ الشكر هو الثناء على النعم، وهو تابع لطبيعة النعمة، فالنعم الظاهرية تختلف

---

(1) سورة سبأ آية/64.

(2) سورة المائدة آية/64.

مرتبة شكرها عن النعم الباطنية. ومرتبة شكر النعم التي من نوع العلوم والمعارف تختلف عن مرتبة شكر النعم التي تعتبر فيضاً إلهياً متجلياً للإنسان، وهكذا كلما كانت النعم أعمق كلما اختلفت طبيعة الشكر.

وإذا عرفنا أن هذه النعم بجميع مراتبها غير متوفرة سوى عند القليل من العباد، يتضح أن النهوض بأداء الشكر على جميع المستويات وبأعلى المراتب غير متوفر سوى للقليل من العباد المخلصين الذين وصلوا إلى الكمالات الظاهرية والباطنية...

مقامات الشكر:

الشكر يعتبر عادة من المقامات العامة، ويذكر في سياقه ـ كدليل عليه ـ ضرورة مكافأة المنعم على إنعامه، ولكن الحقيقة أن أولياء الله خصوصاً الكامل منهم لهم شأن آخر في موضوع الشكر، فللشكر درجات ومقامات، وذكروا في الدرجة العالية منه ـ وهي درجة مشاهدة العبد لجمال المنعم والتأمل فيه ـ ثلاث مقامات:

الأول: أن يشاهد المنعم عبوديةً فيستعظم نعمته، بمعنى أنه عندما يشاهد هذه النعمة يشاهدها مشاهدة العبد الذليل لمولاه، ويستغرف في آداب الحضور ولا يرى لنفسه اعتباراً، فيستعظم النعمة ويجد نفسه غير مؤهل لها.

الثاني: أن يشاهده حباً فيستحلي منه الشدة، بمعنى أنه يشاهده مشاهدة الصديق لصديقه، فيستغرق في جمال هذا المحبوب، ويرى جميع أفعاله محبوبة يستمتع بها حتى وإن كانت شاقة ومجهدة.

الثالث: أن يشهده متفرداً دون تعينات الأسماء، بمعنى أنه يغفل عن نفسه وعن غيره، ولا يكون عنده مشهوداً إلا ذات الحق، من دون أن يرى نعمةً أو يشاهد شدة.

إن جميع المقامات هي من السبل العامة في بداية الأمر، ولكنها في النهاية تتخصص لتصبح للخلّص بل للكاملين.

فضيلة الشكر في الروايات:

فلنتمم الكلام بذكر بعض أحاديث الشكر:

عن أبي عبد الله عليه السلام:

«قال رسول الله ﷺ: الطاعم الشاكر له من الأجر كأجر الصائم المحتسب، والمعافى الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الصابر. والمعطى الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع»[1].

وعنه عليه السلام:

«ثلاث لا يضر معهن شيءٌ: الدعاء عند الكرب، والاستغفار على الذنوب، والشكر عند النعمة»[2].

وعنه عليه السلام:

«إن الرجل منكم ليشرب الشربة من الماء فيوجب الله له بها الجنة. ثم قال: إنه ليأخذ الإناء فيضعه على فيه فيسمي ثم يشرب، فينحّيه وهو يشتهيه فيحمد الله، ثم يعود فيشرب ثم ينحيه فيحمد الله، ثم يعود فيشرب، ثم ينحيه فيحمد الله، فيوجب الله عز وجل بها له الجنة»[3].

وحمد الله يساوي الشكر، وقد ورد في كثير من الروايات أن من قال «الحمد لله» فقد شكر الله. كما روي عن الصادق عليه السلام:

«شكر كل نعمة وإن عظمت أن تحمد الله عز وجل عليها»[4].

عن حماد بن عثمان قال:

«خرج أبو عبد الله عليه السلام من المسجد وقد ضاعت دابته فقال: لئن ردها الله علي لأشكرن الله حق شكره. قال: فما لبث أن أُتي بها، فقال:

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الشكر، حديث 1.
(2) المصدر نفسه، حديث 7.
(3) المصدر نفسه، حديث 16.
(4) المصدر نفسه، حديث 10.

الحمد لله. فقال له قائل: جعلت فداك اليس قلت: لأشكرن الله حق شكره؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: ألم تسمعني قلت: الحمد لله»[1].

يفهم من هذا الحديث أن حمد الله سبحانه من أفضل وسائل الشكر باللسان.

إن من آثار الشكر، زيادة النعمة ووفورها، كما صرح بذلك الكتاب الكريم:

﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾.

فعن الإمام الصادق عليه السلام:

«من أُعطي الشكر أُعطي الزيادة، يقول الله عز وجل ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾»[2].

أسئلة الدرس

1 ـ ما هي آثار الشكر على مستوى: القلب واللسان والأعمال؟

2 ـ هل يمكن للمخلوق ـ أي مخلوق كان ـ أن يؤدي حق شكر المنعم تعالى؟ لماذا؟

3 ـ كيف يكون العبد شكوراً؟

4 ـ من هو القادر على النهوض بأداء الشكر على جميع المستويات وبأعلى المراتب؟ ولماذا؟

5 ـ ميز مقامات الشكر الثلاث عن بعضها البعض.

---

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الشكر، حديث 8.

(2) المصدر نفسه، حديث 11.

الدرس السادس والعشرون

التوكل

عن علي بن سويد عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام، قال: سألته عن قول الله عز وجل ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ فقال عليه السلام:

«**التوكل على الله درجات، منها أن تتوكل على الله في أمورك كلها، فما فعل بك كنت عنه راضياً تعلم أنه لا يألوك خيراً وفضلاً وتعلم أن الحكم في ذلك له، فتوكل على الله بتفويض ذلك إليهوثق به فيها وفي غيرها**»[1].

معنى التوكل ودرجاته:

التوكل في اللغة هو إظهار العجز والإعتماد على طرف آخر، واتكلت على فلان في أمر: اعتمدته.

وأما التوكل على الله فله معاني متقاربة، ولكن بتعبيرات مختلفة على ألسن العلماء، بحسب المسالك المختلفة، كقولهم «التوكل كلة الأمر كله إلى مالكه والتعويل على وكالته» و«التوكل طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية» و«التوكل على الله انقطاع العبد في جميع ما يأمله من المخلوقين».

وهذه المعاني كلها متقاربة، ولا حاجة للبحث فيها.

وأما درجات التوكل فهي مبنية على درجة معرفة العباد بربوبية الحق جل جلاله، فلمعرفة درجات التوكل لا بد من الإطلاع على درجات المعرفة تلك:

الناس في معرفة الربوبية مختلفون ومتباينون إلى حد كبير، فهناك الموحدون وغير الموحدين، ولا شغل لنا مع غير الموحدين، وأما الموحدون فهم درجات ومراتب:

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب التفويض إلى الله والتوكل عليه، حديث 5.

المرتبة الأولى: وهم عامة الموحدينالذين يعرفون أن الله تعالى هو خالق مبادئ الأمور وأنواع الموجودات وعناصرها.

وصحيح أن ألسنة هؤلاء تقول: إن مقدر الأمور والمتصرف في كل شيئ هو الحق تعالى، فما من كائن يكون إلا بإرادته المقدسة، ولكن يكون هذا الكلام مجرد إدعاء على الألسنة، وهم في الحقيقة ليسوا من أهل هذا المقام لا علماً ولا إيمانا ولا قلباً ولا وجداناً.

إن هذا الفريق من الناس تجده يتحدث فيما يتعلق بالآخرة عن التوكل بزهو ومباهاة، فإذا ظهر منهم أي تكاسل في العبادات والطاعات بادروا إلى إظهار توكلهم على الله وفضله، وكأنهم يريدونبإظهار التوكل هذا تبرير وتوفير كل أسباب الكسل والتقصير تجاه الحق تعالى. وهذا ليس إلا بسبب عدم اهتمامهم بالآخرة، وعدم إيمانهم إيماناً حقيقياً بالمعاد وتفاصيله.

وأما فيما يتعلق بالدنيا والأسباب الظاهرية، فتجدهم لا يتشبثون إلا بالأسباب الظاهرية، ولا يعرفون معنى التوكل في هذه الأمور، وإذا ما اتفق أحياناً أن توجهوا إلى الحق، كان ذلك من باب التقليد أو من باب الاحتياط باعتبار أنه لا يضر على كل حال.

وربما يحتملون الفائدة فيه أحيانا، وفي مثل هذه الحالة توجد رائحة التوكل، خاصة إذا كانت الأمور تعاكسهم، ولكنهم إذا رأوا الأسباب الظاهرية ملائمة ومطابقة لأهوائهم، غفلوا كلياً عن الحق تعالى وعن تصريفه للأمور.

إن العمل والتكسب لا ينافي التوكل، بل هو ضروري يدل عليه البرهان العقلي والدليل النقلي، ولكن الغفلة عن ربوبية الحق وتصريفه للأمور واعتبار الأسباب مستقلة، يتنافى والتوكل.

المرتبة الثانية: هناكفريق آخر من الناس الذين اقتنعت عقولهم إما بالبرهان أو بالروايات أن الحق تعالى هو مقدّر الأمور ومسبب الأسباب ولا حدود لقدرته وتصرفه.

وهم متوكلون على الله تعالى من خلال عقولهم، فهم يرون أنفسهم من المتوكلين ويقيمون الدليل أيضاً على لزوم التوكل وقد ثبتت لديهم أركان التوكل الأربعة وهي:

1 ـ إن الحق تعالى عالم بحاجات العباد.

2 ـ إنه تعالى قادر على تلبية تلك الحاجات.

3 ـ ليس في ذاته المقدسة بخل.

4 ـ هو رحيم بالعباد رؤوف بهم.

إذاً يجب التوكل على العالم القدير الكريم الرحيم بالعباد، الذي لا يفوّت عليهم مصالحهم حتى وإن لم يميزوا بين ما ينفعهم ويضرهم.

هؤلاء وإن كانوا متوكلين عملياً إلا أن التوكل عندهم لم يتجاوز العقول إلى القلوب، فلم يبلغوا مرتبة الإيمان، فهم مضطرون في امورهم، عقولهم مغلوبة في الصراع مع قلوبهم التي تعلقت بالأسباب والمحجوبة عن تصرف الحق.

ولعل الحديث الذي أوردنا بداية الدرس يشير إلى هذه المرتبة، حيث نجده أخذ العلم مبدأ ومنطلقاً للتوكل «وتعلم أن الحكم في ذلك له».

المرتبة الثالثة: هم الذين توصلوا بقلوبهم إلى معرفة تصرف الحق تعالى في الكائنات، فآمنت تلك القلوب بأن مقدر الامور والسلطان ومالك الأشياء هو الحق تعالى، وسرت أركان التوكل من عقولهم إلى قلوبهم.

غير أن أصحاب هذه المرتبة أيضاً لهم درجات متفاوتة، تفاوتاً كبيراً، قبل أن يصلوا إلى درجة الإطمئنان الكامل. فإذا وصل إلى تلك الدرجة صار كما وصف أحدهم التوكل قائلاً أنه «طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية».

وهذا كله قبل الوصول إلى مرتبة الذي لا يرى إلا الله سبحانه وتعالى، فإنه حينئذٍ يتجاوز مقام التوكل.

الفرق بين التوكل والرضا:

إن مقام الرضا هو اسمى وأرفع من مقام التوكل، فإن المتوكل يطلب الخير

والصلاح لنفسه، فله إرادة تتعلق بتلك الأمور فيوكل الحق تعالى ـ بصفته فاعل الخير ـ للحصول على الخير والصلاح. وأما الراضي فإنه قد أفنى إرادته في إرادة الله تعالى فلا يختار لنفسه شيئاً. وقد سئل أحدهم «ماذا تريد؟» فقال: «أريد أن لا أريد»، فمطلوبه هو مقام الرضا عليه السلام.

ملاحظة:

وردت في الرواية التي نقلناها عن الكاظم عليه السلام كلمة الرضا حيث قال عليه السلام:

«فما فعل بك كنت عنه راضياً».

وليس المقصود في تلك الكلمة مقام الرضا الذي نتحدث عنه، وإنما المقصود منها مقام التوكل فقط، ولذلك ذكر بعدها «تعلم أنه لا يألوك خيراً وفضلاً وتعلم أن الحكم في ذلك له» حيث ذكر ركنين من أركان التوكل الأربعة وهي القدرة والرحمة، ولم يذكر الركنين الآخرين بسبب وضوحهما، ومن خلال الإلفات إلى هذه الأركان يحصل مقام التوكل، ولذلك جعل نتيجة كلامه عليه السلام في النهاية «فتوكل على الله».

الفرق بين التفويض والتوكل والثقة:

هناك فرق بين التفويض والتوكل والثقة، وكل واحد منها يعتبر موضوعاً منفصلاً.

أما الفرق بين التوكل والتفويض فقد اعتبر بعض العلماء أن الفرق بينهما في عدة أمور:

1 ـ **التفويض أن لا يرى العبد في نفسه حولاً ولا قوة**، ولا يجد أن له تصرفاً في شيئ، ويرى أن الحق هو المتصرف في كل الأمور. وأما التوكل فهو أن يجعل الحق سبحانه قائماً مقامه في التصرف واجتلاب الخير والصلاح.

2 ـ **التفويض أوسع من التوكل**، والتوكل ليس إلا شعبة منه، لأن التوكل يكون في المصالح فقط، والتفويض في الأمور كافة.

٣ ـ **التوكل لا يكون إلا بعد وقوع سبب يستوجبه**، مثل توكل النبي ﷺ وأصحابه على الله في أن يحفظهم من المشركين، حينما قيل لهم: ﴿**إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل**﴾[1]. وأما التفويض فيكون قبل وقوع السبب، كما جاء في الدعاء المروي عن رسول الله ﷺ: «**اللهم إني أسلمت نفسي إليك، وألجأت ظهري إليك، وفوضت أمري إليك**»[2].

ويمكن أن يكون بعد وقوع السبب، مثل تمثيل مؤمن آل فرعون.

هذا ما ذكره العارف المعروف عبد الرزاق الكاشاني.

ويمكن المناقشة في الفارق الثاني، وهو اعتبار التوكل شعبة من التفويض، فلا التوكل من التفويض ولا التفويض من التوكل.

وكذلك بالنسبة للفارق الثلاث، فلا دليل على كون التوكل يكون بعد وقوع السبب، فالتوكل يصح قبل وقوع السبب أيضاً.

ويبقى الفارق الأول فقط يميز بين التفويض والتوكل.وما ورد في الرواية «فتوكل على الله بتفويض ذلك إليه» فيمكن القول بأنه لا توكل إلا مع رؤية تصرفه بنفسه، ولهذا يتخذ لنفسه وكيلاً في أمر من أموره الخاصة به، إلا أن الرسول الأكرم أراد أن يرفع ذلك من مقام التوكل إلى مقام التفويض، وليفهمه أن الحق تعالى لا يقوم مقامه في التصرف، بل هو المتصرف في ملكه ومملكته.

وأما «الثقة» فهي غير التوكل والتفويض، كما يقول بعضهم «الثقة سواد عين التوكل ونقطة دائرة التفويض وسويداء قلب التسليم». أي أن المقامات الثلاثة لا تحصل من دون ثقة، بل إن روح تلك المقامات هي الثقة بالله تعالى، فما لم يثق العبد بالحق تعالى لا يمكن أن ينالها.

ومن هنا يظهر السر في قول الإمام الكاظم عليه السلام بعد التوكل والتفويض:

«**ثق به فيها وفي غيرها**».

---

(1) سورة آل عمران، آية/173.

(2) من لا يحضره الفقيه، حديث/1351.

أسئلة الدرس

1 ـ ما السبب في تفاوت درجات التوكل بين الناس؟

2 ـ ما هي درجة عامة الموحدين من جهة المعرفة والتوكل؟

3 ـ كلمة «أريد أن لا أريد» ما المقصود منها؟ وعن أي مقام تعبّر؟

4 ـ ما الفرق بين التفويض والتوكل بحسب رأي الإمام الخميني قدس سره؟

5 ـ ما سر قول الإمام الكاظم عليه السلام: «**ثق به فيها وفي غيرها**؟».

الدرس السابع والعشرون

الصبر

عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

«إن الحُرّ حُرّ على جميع أحواله، إن نابته نائبة صبر لها، وإن تداكّت عليه المصائب لم تكسره، وإن أسر وقهر، واستُبْدِل باليسر عسراً، كما كان يوسف الصديق الأمين، لم يُضْرِر حريته أن استُعبد وقهر وأسر، ولم تُضرره ظلمة الجب ووحشته وما ناله أن من الله عليه فجعل الجبار العاتي له عبداً بعد إذ كان (له) مالكاً، فأرسله ورحم به أمةً وكذلك الصبر يُعقبُ خيراً فاصبروا ووطنوا أنفسكم على الصبر تؤجروا»[1].

معنى الصبر:

الصبر هو الإمتناع عن الشكوى على الجزع الكامن. يقول العارف المعروف كمال الدين عبد الرزاق الكاشاني: «إن المقصود من الامتناع عن الشكوى، هو الشكوى إلى المخلوق، وأما الشكوى عند الحق المتعالي وإظهار الجزع والفزع أمام قدسيته فلا يتنافى مع الصبر. كما اشتكى النبي أيوب عند الحق سبحانه قائلاً: ﴿**إني مسني الشيطان بنصب وعذاب**﴾[2]، رغم أن الله تعالى أثنى عليه بقوله: ﴿**إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أوّاب**﴾[3]، وقال النبي يعقوب ﴿**إنما أشكو بثي وحزني إلى الله**﴾[4]، مع أنه كان من الصابرين».

ويبدو من تراجم حياة الأنبياء العظام والأئمة المعصومين ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ رغم أن مقاماتهم كانت أرفع من مقام الصبر ومقام الرضا والتسليم،

---

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الصبر، حديث 6.

(2) سورة ص آية/41.

(3) سورة ص آية/44.

(4) سورة يوسف آية/86.

إنهم لم يمتنعوا عن الدعاء والتضرع والعجز أمام المعبود، وكانوا يسألون حاجاتهم من الحق سبحانه.

إن تذكر الحق جل وعلا والخلوة والمناجاة مع المحبوب وإظهار العبودية والذل أمام عظمة الكامل المطلق، غاية آمال العارفين وثمرة سلوك السالكين.

مقام الصبر:

إن الصبر يعتبر من مقامات المتوسطين، لأن النفس ما دامت تكره المصائب والبليات، وتجزع منها، فهذا يعني أن مقام المعرفة ناقص. كما أن مقام الرضا بالقضاء، والإبتهاج من إقبال المصائب عليه، مقام أرقى من مقام الصبر، رغم كون مقام الرضا من مقام المتوسطين أيضاً.

فالإنسان إذا أدرك حقيقة العبادة وآمن بصورها البهية في الآخرة، وكذلك آمن بالصور الموحشة للمعاصي، لما كان للصبر على الطاعة أو المعصية معنى. بل الأمر يغدو معكوساً، فترك العبادة عنده أو فعل المعصية هو الأمر المكروه الذي يتسبب بجزعه النفسي، جزع أكثر من جزع الصابرين في البليات والمصائب.

نُقل عن العبد الصالح علي بن طاووس ـ ﷺ ـ أنه كان يحتفل في كل عام يوم ذكرى بلوغه للتكليف الشرعي، ويتخذه عيداً وينثر الهدايا على الأصدقاء والأهل، وذلك لما شرفه الله سبحانه وتعالى في ذلك اليوم بالإذن في فعل العبادات والطاعات. فهل فعل الطاعات يعد لهذا الروحاني من الصبر على المكروهات الكامنة في أعماق الإنسان؟ أين نحن من هؤلاء العباد المنقادون للحق تبارك وتعالى؟

وما ورد في أئمة الهدى أو الأنبياء العظام من نعتهم بالصبر، فمن المحتمل أنه من الصبر على الآلام الجسدية التي تحصل ـ حسب طبيعة الإنسان ـ ، أو هو من الصبر على فراق الأحبة وهو حينئذٍ من المقامات الكبيرة للمحبين.

وأما الصبر على الطاعات أو المعاصي أو المصائب ـ عدا ما ذكرنا من الآلام الجسدية ـ فلا معنى له في حقهم ولا في حق شيعتهم.

درجات الصبر:

إن المفهوم من الأحاديث الشريفة أن للصبر درجات، ويختلف الأجر والثواب بحسب الدرجة كما في الرواية عن مولى المتقين الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«**قال رسول الله ﷺ الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة وصبر على الطاعة وصبر عن المعصية. فمن صبر على المصيبة حتى يردها بحسن عزائها، كتب الله له ثلاثمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء والأرض، ومن صبر على الطاعة كتب الله له ستمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى العرش، ومن صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش**»[1].

ويفهم من هذا الحديث أن الصبر على المعصية أفضل من كل مراتب الصبر حيث تكون درجاته أكثر والفواصل بين درجاته كبيرة جداً. ويفهم أيضاً أن مساحة الجنة أوسع مما في أوهامنا نحن المحجوبين والمقيدين.

ولعل ما ورد في تحديد الجنة من قوله تعالى: ﴿**عرضها السموات والأرض**﴾[2] عائد إلى جنة الأعمال.

وما ورد في الحديث «**جنة الأخلاق**»، والمقياس في جنة الأخلاق، قوة الإرادة وكمالها، وهي غير محدودة بحد.

وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام:

«**قال رسول الله ﷺ سيأتي على الناس زمان لا يُنال فيه المُلك إلا بالقتل والتجبر، ولا الغنى إلا بالغصب والبخل، ولا المحبة إلا باستخراج الدين واتباع الهوى، فمن أدرك ذلك الزمان فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على البِغضة وهو يقدر على المحبة**

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الصبر، الحديث 15.

(2) سورة آل عمران، آية 133.

وصبر على الذل وهو يقدر على العز، أتاه الله ثواب خمسين صدّيقاً ممن صدّق بي»[1].

نتائج الصبر:

إن للصبر نتائج كثيرة فهو مفتاح أبواب السعادات،و باعث للنجاة من المهالك، يهون المصائب ويخفف الصعاب، ويقوي العزم والإرادة، ويبعث على استقلالية مملكة الروح.

إن من نتائج الصبر ترويض النفس وتربيتها،، فإذا صبر الإنسان حيناً من الوقت على مصائب الدهر، وعلى مشاق العبادات والمناسك، وعلى مرارة ترك الملذات النفسية امتثالاً لأوامر ولي النعم، وتحمل الصعاب مهما كانت شديدة، تروضت النفس شيئاً فشيئاً واعتادت وتخلت عن طغيانها وتذللت الصعاب وحصلت للنفس صفات راسخة نورية، بها يتجاوز الإنسان مقام الصبر ليبلغ المقامات الأخرى الشامخة.

ولكل درجة من درجات الصبر فائدة خاصة: فالصبر على المعصية يبعث على تقوى النفس، والصبر على الطاعة يسبب الاستيناس بالحق عز وجل، والصبر على البلايا يوجب الرضا بالقضاء الإلهي. وكل ذلك من المقامات الشامخة لأهل الإيمان العارفين بالله سبحانه وتعالى.

وللصبر في الآخرة ثواب جزيل وأجر جميل، كما ورد في الحديث:

«وطنوا أنفسكم على الصبر تؤجروا».

وورد في الحديث الشريف:

«من ابتلي من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له مثل أجر ألف شهيد»[1].

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الصبر، حديث 12.
(2) المصدر نفسه، حديث 17.

ويتجسد الصبر في الآخرة بصورة بهية شريفة، ففي الرواية عن الصادق عليه السلام:

«إذا دخل المؤمن في قبره كانت الصلاة عن يمينه والزكاة عن يساره والبر مطل عليه ويتنحى الصبر ناحية، فإذا دخل عليه الملكان اللذان يليان مساءلته قال الصبر للصلاة والزكاة والبر: دونكم صاحبكم فإن عجزتم منه فأنا دونه»[1].

وأما الفزع والجزع فمضافاً إلى أنه بنفسه عيب، وكاشف عن الضعف في النفس، يجعل الإنسان مضطرباً والإرادة ضعيفة والعقل موهوناً.

درجات أهل المعرفة:

إن ما ذكرناه إلى الآن يعود إلى عامة الناس المتوسطين، ولكن للصبر درجات أخرى ترجع إلى الكملين العارفين بالله، الأولياء الصالحين، ومن هذه الدرجات:

- الصبر في الله: وهو الثبات في المجاهدة وترك ما هو متعارف لدى الناس ومألوف عندهم، بل ترك نفسه في سبيل الحبيب.

- **الصبر مع الله:** وهو خاص بالذين قد تجردوا عن خصوصياتهم المادية، و ذاب قلبهم في الله وصار محط أنواره، حتى غرق في الأنس من جهة والهيبة من جهة أخرى، حفظ نفسه عن التوجهات المتعددة، حتى لم تعد ترى إلا شيئاً واحداً وهو الله سبحانه وتعالى.

- **الصبر عن الله:** وهو من درجات عشاق الله والمشتاقين من أهل معرفته الذين شاهدوا جماله تعالى ببصيرة القلوب، فهم يشكون من فراق المولى والحبيب، وهو من أصعب مراتب الصبر، وقد أشار إلى هذه المرتبة مولى السالكين وإمام الكملين وأمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل:

(فهبني يا إلهي وسيدي ومولاي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك).

---

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب الصبر، حديث 8.

ـ الصبر بالله: وهو لأهل الاستقامة، حيث يحصل بعد الصحو والبقاء بالله، وبعد التخلق بأخلاق الله، ولانصيب فيه إلا للكمّلين.

وحيث أنه لا حظ لنا في هذه المراتب ولا نصيب، لم نتطرق في هذه الأوراق لشرحها بالتفصيل.

أسئلة الدرس

1 ـ هل الشكوى أمام الخالق وإظهار الجزع أمامه يتنافى مع الصبر؟ ما الدليل على ذلك من القرآن الكريم؟

2 ـ الصبر على الطاعة وعن المعصية هل هو من مقامات الأولياء أم المتوسطين؟ وكيف تفسر نعت أئمة الهدى والأنبياء العظام بصفة الصبر؟

3 ـ كيف توفّق بين الآية التي وصفت عرض الجنة بأنه ﴿**عرضها السموات والأرض**﴾ وبين الرواية القائلة «من صبر عن المعصية كتب الله له تسعمائة درجة ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين تخوم الأرض إلى منتهى العرش»، حيث يتضح منها أن الجنة أوسع بكثير مما ذكرته الآية الكريمة؟

4 ـ ما هو أثر الصبر على الطاعة وعلى المعصية وعلى البلايا؟

5 ـ إن الصبر المعروف هو مختص بالمتوسطين بالناس، وأما الأولياء فلهم نوع آخر من الصبر، أذكر نوعان منها مع بيانهما.

الدرس الثامن والعشرون

العبادة ـ ١ ـ

عن الإمام الصادق عليه السلام:

«في التوراة مكتوب: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي املأ قلبك غنى، ولا أكلك إلى طلبك، وعليّ أن أسد فاقتك وأملأ قلبك خوفاً مني. وإن لا تفرّغ لعبادتي أملأ قلبك شغلاً بالدنيا ثم لا أسد فاقتك و أكِلُك إلى طلبك»[1].

أسرار العبادة وتجسم الأعمال:

إن فهم القلب لأهمية العبادات لا يتيسر إلا عند استيعاب أسرارها وحقائقها، ومن الواضح أنه غير ميسر بالنسبة لنا، ولكن لنذكر منها بالمقدار الذي يتناسب مع فهمنا:

إن لكل من الأعمال الحسنة والأفعال العبادية صورة ملكوتية باطنية، وأثر في قلب العابد، والصورة الباطنية هي التي تعمّر عالم البرزخ والجنة الجسمانية، فأرض الجنة خالية من كل شيء كما ورد في الحديث، والأذكار والأعمال هي مواد إنشاء وبناء لها. وهناك الكثير من الآيات القرآنية تدل على تجسم الأعمال، كقوله تعالى:

﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ❖ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾[2].

وقوله تعالى:

﴿ووجدوا ما عملوا حاضرا﴾[3].

---

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب العبادة، حديث 1.

(2) سورة الزلزلة، آيات/٧ـ٨.

(3) سورة الكهف، آية/49.

والأخبار الدالة على تجسم الأعمال وتلبسها بصور غيبية، متعددة، نذكر منها:

عن الإمام الصادق عليه السلام:

«من صلى المفروضات في أول وقتها وأقام حدودها، رفعها الملك إلى السماء بيضاء نقية تقول: حفظك الله كما حفظتني استودَعَني ملك كريم. ومن صلاها بعد وقتها من غير علة ولم يقم حدودها، رفعها الملك سوداء مظلمة وهي تهتف به ضيعتني ضيعك الله كما ضيعتني ولا رعاك الله كما لم ترعني»[1].

بل إن الأخبار تدل على أن ذلك العالم كله حياة وعلم:

﴿وإن الآخرة لهي الحيوان﴾[2].

وفي رواية عن الإمام الصادق عليه السلام:

«إذا بعث الله المؤمن من قبره خرج معه مثال يقدم أمامه، كلما يرى المؤمن هولاً من أهوال يوم القيامة قال له المثال: لا تفزع ولا تحزن وأبشر بالسرور والكرامة من الله عز وجل، حتى يقف بين يدي الله عز وجل فيحاسبه حساباً يسسيراً ويأمر به إلى الجنة والمثال أمامه، فيقول له المؤمن: يرحمك الله نِعم الخارج، خرجت معي من قبري وما زلت تبشرني بالسرور والكرامة من الله حتى رأيت ذلك، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا السرور الذي كنت أدخلته على أخيك المؤمن في الدنيا، خلقني الله عز وجل منه لأبشرك»[3].

فلكل عمل مقبول لدى ساحة قدس الحق المتعالي صورة بهية حسنة تتناسب معه من الحور أو القصور أو الجنان العالية أو الأنهار الجارية.

وقد ورد في بعض الروايات تجسد الاعتقادات أيضاً.

(1) وسائل الشيعة، المجلد الثالث، الباب الثالث من أبواب المواقيت، حديث 17.

(2) سورة العنكبوت، آية/64.

(3) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب إدخال السرور على المؤمنين، الحديث 8.

العبادة وحضور القلب:

إن حضور القلب من الأمور المهمة في باب العبادات، فهو روح العبادة، والعبادة من دون حضور القلب غير مجدية، ولا تقع مقبولة في ساحة الحق المتعالي كما ورد في الروايات الشريفة، عن أبي جعفر وأبي عبد الله ﴿عليهما السلام﴾:

«إنما لك من صلاتك ما أقبلت عليه منها، فإن أوهمها كلها أو غفل عن آدابها لُفت فضُرِب بها وجه صاحبها»[1].

وفي رواية عن الثمالي قال:

«رأيت علي بن الحسين ﴿عليه السلام﴾ يصلي، فسقط رداؤه عن منكبه فلم يسوّه حتى فرغ من صلاته، قال: فسألته عن ذلك، فقال: ويحك أتدري بين يدي من كنت؟ إن العبد لا تقبل منه صلاة إلا ما أقبل عليه منها، فقلت: جعلت فداك هلكنا، قال: كلا، إن الله متمم ذلك للمؤمنين بالنوافل»[2].

وما يبعث على حضور القلب أمران:

الأول. إفهام القلب أهمية العبادة:

فإن الإنسان إذا اقتنع أن العبادة أكثر أهمية من الأمور الأخرى، بل لا مجال للمقارنة بين العبادة والأمور الأخرى لالتفت إليها أكثر وخصص لها وقتاً وحافظ على أوقاتها. فالذي لا يعرف أهمية الصلاة ويراها أمراً زائداً، سيؤجل صلاته إلى آخر الوقت، ويأتي بها بكل فتور ونقص، وسيكون دائماً أن هناك أموراً أهم من الصلاة ستأخذ وقتهوما شرحناه في تجسد الأعمال يبين أهمية العبادة إجمالاً.

الثاني. تفريغ الوقت والقلب للعبادة:

- **تفريغ الوقت:** لا بد للإنسان المتعبد أن يوظف وقتاً للعبادة، وأن يحافظ على أوقات الصلاة التي هي أهم العبادات، وأن يؤديها في وقت الفضيلة، ولا يشغل

(1) فروع الكافي، المجلد الثالث، ص363.

(2) وسائل الشيعة، المجلد الرابع، الباب الثالث من أبواب أفعال الصلاة، الحديث 6.

نفسه في تلك الأوقات بعمل آخر، فكما يخصص وقتاً لكسب المال والجاه والعلم، فكذلك عليه أن يخصص وقتاً للعبادة.

ولو أحس بالثقل من أداء الصلاة، ورأى أنها أمر زائد، فمن الطبيعي أنه سيؤخر صلاته إلى آخر الوقت، ويأتي بها بكل فتور ونقص. إن هناك أموراً أخرى أهم منها في نظره، والصلاة تتزاحم مع هذه الأمور الهامة، فيفضلها ويقدمها على الصلاة. فهو في الحقيقة مستخف بالصلاة متهاون بها، وقد ورد في الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام:

«لا تتهاون بصلاتك فإن النبي ﷺ قال عند موته: ليس مني من استخف بصلاته، ليس مني من شرب مسكراً، لا يرد علي الحوض لا والله»[1].

وفي رواية أخرى عن الإمام الكاظم عليه السلام:

«لما حضرت أبي الوفاة قال لي: يا بني لا ينال شفاعتنا من استخف بالصلاة»[2].

الله وحده يعلم حجم المصيبة العظمى الناشئة عن الانقطاع عن الرسول الأكرم ﷺ، والخروج من ظل رعايته، والله يعلم مستوى الخذلان عندما يمنى الإنسان بالحرمان من شفاعة رسول الله وأهل بيته العظام! لا تظن أن أحداً يرى رحمة الحق سبحانه ووجه الجنة، من دون شفاعة رسول الله ﷺ ورعايته!.

ـ **تفريغ القلب**: والأهم من تفريغ الوقت، تفريغ القلب، فعلى الإنسان لدى اشتغاله بالعبادة أن يجرد نفسه من هموم الدنيا ومشاغلها، ويبعد قلبه عن الأوهام المتشتتة والأمور المختلفة، ويفرغ فؤاده نهائياً، ويخلّصه بشكل كامل للتوجه للعبادة و المناجاة مع الحق المتعالي.

شقاؤنا أننا نترك كل أفكارنا وأوهامنا المختلفة إلى وقت العبادة، فإذا كبرنا تكبيرة الإحرام فكأننا فتحنا دفتر حساباتنا الدنيوية ومشاغلنا اليومية لنصرف

(1) فروع الكافي، المجلد الثالث، ص269.
(2) المصدر نفسه، ص270.

قلوبنا إلى كل تلك الأمور غافلين عن العبادة، ولا نلتفت إلا وقد انتهينا من الصلاة!

فلنجعل ـ على الأقل ـ مناجاتنا مع الحق سبحانه بمثابة التحدث مع إنسان بسيط من هؤلاء الناس، فكيف أنك إذا تكلمت مع صديق، أو حتى مع شخص غريب، توجهت إليه بكل وجودك وانصرف قلبك عن غيره أثناء التكلم معه، فلماذا إذا تكلمت وناجيت ولي النعم ورب العالمين، غفلت عنه إلى غيره، هل أن العباد يقدرون أكثر من الذات المقدس الحق؟ أم أن التكلم مع العباد أهم من المناجاة مع قاضي الحاجات؟

اشتهر عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام أن سهماً أصاب قدمه المبارك، فلم يستطع أن يتحمل ألم انتزاعه من رجله، فقام وصلى وفي أثناء اشتغاله بالصلاة، انتزع السهم ولم ينتبه أصلاً!

إن عدم إدراك الألم حين التوجه إلى شيء ليس من الأمور الغريبة، فإن له أمثلة كثيرة في الأمور العادية من حياة الناس. إن الإنسان عند هيجان الغضب أو المحبة يغفل عن كل شيء.

يجب على الإنسان أن يلجم خياله ويسيطر عليه بشكل تدريجي، فيراقب نفسه، ويمنع خياله من الإفلات، وبعد فترة سيدجن الخيال ويهدأ وتزول عنه حالة التشتت.

عن الإمام الصادق عليه السلام:

«لأُحب للرجل المؤمن منكم إذا قام في صلاة فريضة أن يُقبِل بقلبه إلى الله ولا يشغل قلبه بأمر الدنيا، فليس من عبد يقبل بقلبه في صلاته إلى الله تعالى إلا أقبل الله إليه بوجهه وأقبل بقلوب المؤمنين إليه بالمحبة بعد حب الله إياه»[1].

(1) وسائل الشيعة، المجلد الرابع، الباب الثاني من أبواب أفعال الصلاة، حديث 6.

أسئلة الدرس

1 ـ ما الذي يعطي صورة الإنسان الجسمية في الآخرة؟

2 ـ ما المقصود من تجسد الأعمال؟ اذكر رواية تدل على ذلك.

3 ـ ما هو دور النوافل بالنسبة للمؤمن؟

4 ـ ما هما الشرطان العمليان لحضور القلب في الصلاة؟ أذكر رواية تشير إلى كل منهما.

5 ـ هناك فوائد لإقبال القلب في الصلاة ذكرتها الروايات بالإضافة لقبول الصلاة، ما هي هذه الفوائد؟

الدرس التاسع والعشرون

العبادة ـ ٢ ـ

في الحديث القدسي:

«إن أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري»[1].

مراتب حضور القلب:

يقول أهل المعرفة: العبادات بأسرها، ثناء للمعبود، ولكن كل منها ثناء للحق سبحانه بواسطة نعت من النعوت واسم من الأسماء، إلا الصلاة فإنها ثناء للحق سبحانه مع جميع الأسماء والصفات.

وقد ذكرنا فيما سبق أن ثناء المعبود والخضوع للكامل والجميل والمنعم والعظيم المطلق، من الفطرة التي جبل عليها جميع الناس، وباعتبار أن الثناء متوقف على معرفة الذات والصفات للمنعم من جهة، ومن جهة أخرى فإن كيفية ارتباط عالم الغيب بعالم الشهادة، وعالم الشهادة بعالم الغيب غير متيسر لأي شخص إلا عن طريق الوحي والإلهام الإلهي، صارت العبادات بشكل عام توقيفية، وبيد الحق تعالى، ولا يحق لأحد أن يشرع من عنده، ويبتدع عبادة على مزاجه، ولا يمكن قياس التواضع والخضوع المعهود أمام السلاطين والزعماء بما ينبغي أمام عظمة ساحة قدس رب العالمين.

بعد أن عرفنا هذا، يمكننا أن نفهم مراتب حضور القلب، حيث أنه ينقسم بصورة عامة إلى قسمين مهمين:

الأول ـ حضور القلب في العبادة:

إن حضور القلب في العبادة له مراتب، عمدتها وأساسها مرتبتان اثنتان:

إحداهما: حضور القلب في العبادة إجمالاً: فالإنسان لدى إنجازه لعبادة ـ مهما

---

(1) أخبار العلوم، المجلد الرابع، ص256.

كانت هذه العبادة، كالوضوء أو الصلاة أو الصيام أو الحج... ـ يعرف إجمالاً انه يثني على المعبود، رغم عدم معرفته بتفاصيل هذا الثناء، أو أي اسم من أسماء الحق يدعو. كما لو أن شخصاً ينظم قصيدة في مدح أحد ثم يعطيها لطفل ليلقيها أمام الممدوح، فعندما يقرأ الطفل هذه القصيدة، يعلم إجمالاً أنه يثني على الممدوح رغم جهله لكيفية ثنائه عليه ولمعاني الكلمات التي يتلوها.

ثانيهما: حضور القلب في العبادة بصورة تفصيلية: إن المرتبة الكاملة من هذا الحضور القلبي غير متيسرة إلا للخلّص من أولياء الله وأهل معرفته. ولكن بعض مراتبها الدانية متيسرة الحصول للآخرين.

ـ فالمرتبة **الأولى** منها هي الالتفات إلى معاني الألفاظ في مثل الصلاة والدعاء.

ـ **والمرتبة الثانية** أن يعرف حسب الإمكان أسرار العبادة، ويعلم كيفية ثناء المعبود في كل من الأوضاع والأحوال.

إن أهل المعرفة قد بينوا شيئاً قليلاً من أسرار الصلاة والعبادات الأخرى، واستفادوا حسب الإمكان من أخبار المعصومين عليهم السلام.

الثاني. حضور القلب في المعبود:

وهذا له مراتبه الخاصة أيضاً، وعمدتها والأساس فيها ثلاثة مراتب:

المرتبة الأولى: حضور القلب في تجليات الأفعال: وله مراحله الأربعة: العلم، الإيمان، الشهود، والفناء.

ـ **حضور القلب في تجليات الأفعال العلمية**: هو أن يدرك الإنسان بعقله من خلال البرهان أن كل الوجود بما فيه من عالم الغيب والشهادة هو فيض من كرم الله سبحانه وتعالى، وإن الجميع حاضرون عنده بلا تفاوت وكلهم مظهر مشيئته.

ورد في الحديث الشريف عن الإمام الصادق عليه السلام:

«خلق الله المشية بنفسها ثم خلق الأشياء بالمشية»[1].

(1) أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب التوحيد، باب الإرادة من صفات الفعل، حديث 4.

فإذا فهم العابد ذلك، فهم أنه وعبادته وعلمه وإرادته وقلبه وحركاته وظاهره وباطنه حاضرون في ساحة قدسه.

ـ حضور القلب في تجليات الأفعال الإيمانية: إذا انتقل دليل العقل لينتقش في القلب واعتقد به عبر الترويض العلمي والعملي، فصارت مسألة يقينية إيمانية في قلبه.

ـ حضور القلب في تجليات الأفعال الشهودية: إذا حصل كمال الإيمان، وبعد المجاهدة والترويض والتقوى الكاملة للقلب، تشمله الهداية الإلهية، ويصل إلى مرتبة الشهود والمعاينة، فيرى الحقائق ماثلة أمامه.

ـ حضور القلب في تجليات الأفعال الفنائية: إذا تكاملت مرحلة الشهود والعيان حتى يصبح القلب كلياً مرآة تتجلى فيها الحقائق ليحصل له بعد ذلك الفناء، فناء في تجليات الأفعال.

المرتبة الثانية: حضور القلب في تجليات الاسماء: إذا كان الإنسان مؤهلاً فإنه لن يبقى متوقفاً في مرحلة تجليات الأفعال، وإنما سينتقل إلى مرحلة يكون فيها مورداً لتجليات أسماء الله و صفاته، فيطوي تلك المراحل الأربعة أيضاً في هذه المرحلة (العلم، الإيمان، الشهود، والفناء). ولعله الكلمة القائلة: «إن أوليائي تحت قبابي لا يعرفهم غيري» إشارة إلى هؤلاء الأولياء.

المرتبة الثالثة: حضور القلب في تجليات الذات:إذا استطاع الإنسان أن يعبر المرتبة الثانية، فسيصير محلاً للتجليات الذاتية ويطوي المراحل الأربعة. قال بعض: إن الآية الكريمة ﴿**ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله**﴾[1]، تشير إلى هذه الطائفة من أولياء الله والسالكين إليه وأجرهم لا يكون إلا على الذات المقدس تبارك وتعالى.

وقد يقدر أن ينهض الإنسان من هذه المرحلة ليقوم بهداية الناس:

﴿**يا أيها المدثر ❖ قم فأنذر**﴾[2].

(1) سورة النساء، آية/100. (2) سورة المدثر، الأيتان/2.1.

فإن كان هذا الشخص وصل إلى مرحلة الإحاطة بجميع الشؤون ـ وهي مرحلة معرفة الاسم الأعظم ـ تم الكشف الكلي واختتمت النبوة بوجوده المقدس كما اختتمت بالنبي المعظم صلوات الله وسلامه عليه وآله.

فلو فرضنا أن شخصاً من أولياء الله تبعاً لذات النبي ﷺ وهداية الله سبحانه وتعالى، استطاع أن يصل إلى نفس المقام، فلن يفتح هذا باب النبوة من جديد لأنه لا يجوز التكرار في التشريع، فدائرة النبوة انتهت في وجوده المقدس ﷺ.

إن هذا الموضوع لا حظ لنا فيه إلا الألفاظ، والمهم لأمثالنا المحرومين من مقامات الأولياء أن لا نجحد هذه المقامات بل نسلم بها، فإن في التسليم لأمر الأولياء فوائد كثيرة، وفي الإنكار والعياذ بالله مفاسد. اللهم إني مسلم لأمرهم ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ.

التفرغ في العبادة يوجب الغنى في القلب:

إن الغنى هو من الصفات الكمالية للباطن والنفس والذات، لذلك يعتبر الغنى من الصفات الذاتية للحق تعالى.

إن الثروة والأموال لا توجب غنى في النفس، بل نستطيع أن نقول إن من لا يملك غنى في النفس يكون حرصه تجاه المال والثراءأكثر، وحاجته أشد.

ولمّا لم يكن أحد غنياً حقيقياً أمام ساحة الحق جل جلاله الغني بالذات، وكانت الموجودات كلها بجميع مراتبها ودرجاتها، فقيرة ومحتاجة، لهذا كلما كان تعلق القلب إلى غير الحق، وتوجه الباطن نحو تعمير الملك والدنيا أشد، كان الفقر والحاجة أكثر، على جميع المستويات:

أما الحاجة القلبية والفقر الروحي، فواضح جداً، لأن نفس التعلق بتلك الأمور والتوجه إليها هو فقر.

وأما الحاجة الخارجية التي تؤكد بدورها الفقر القلبي، فهي أيضاً اكثر، لأن أحداً لا يستطيع النهوض بأعماله بنفسه، فيحتاج في ذلك إلى غيره. والأثرياء وإن

ظهروا بمظهر الغنى، ولكن بالتمعن يتبين أن حاجتهم تتضاعف على قدر تزايد ثرواتهم. فالأثرياء فقراء في مظهر الأغنياء، ومحتاجون في زي من لا يحتاج.

وسينتج عن ذلك كله غبار الذل والمسكنة وظلام الهوان والحاجة،وفي الحديث " ان لا تفرغ لعبادتي أملأُ قلبك شغلاً بالدنيا ثم لا أسد فاقتك وأكلك إلى طلبك».

وعكس ذلك من وضع تحت قدميه التعلق بالدنيا، فإنه سيحوّل وجه قلبه إلى الغني المطلق، ويؤمن أن كل تلك الموجودات لها فقر ذاتي وحاجة أبدية، لا تملك لنفسها شيئاً.

﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾[1].

وهكذا سيزداد غنى كلما استغنى عن العالمين أكثر، حتى يبلغ مستوى استغنائه درجة لا يرى لملك سليمان قيمة، ولا يأبه بخزائن الأرض عندما توضع بين يديه مفاتيحها.

يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام لابن عباس:

«وإن دنياكم عندي لأهون من ورقة في فم جرادة تقضمها»[1].

ويقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام:

«أستنكف أن أطلب الدنيا من خالقها فكيف بطلبها من مخلوق مثلي».

عندما يعطي الإنسان قلبه إلى صاحبه الحقيقي ويعرض عن غيره ولا يسلم هذا القلب للغاصبين، سيتجلى فيه صاحبه الغني المطلق، ليدفع هذا القلب نحو الغنى المطلق، فيغرق القلب في بحر العزة والغنى.

﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾[3].

وسيوصد باب الفقر لدى العبد نهائياً ليستغني عن العالمين، كما في الحديث القدسي:

«وإنه ليتقرب إلي بالنافلة حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي

---

(1) سورة فاطر، آية/15.

(2) الخطبة 224 من نهج البلاغة.

(3) سورة المنافقون، آية/9.

يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به ويده التي يبطش بها»[1].

وسيكون نتيجة ذلك أيضاً إرتفاع الخوف من جميع الكائنات، ليحلّ الخوف من الحق المتعالي محله.

أسئلة الدرس

1 ـ ما الفرق بين الصلاة وبين سائر العبادات؟

2 ـ لماذا صارت العبادات ـ بشكل عام ـ توقيفية؟

3 ـ ما الفرق بين حضور القلب في العبادة وحضوره في المعبود؟

4 ـ لماذا يعتبر التعلق بالدنيا وتعميرها ـ بعيداً عن الله تعالى ـ فقراً على المستوى الروحي والعملي؟

5 ـ كيف يمكن أن يصل الإنسان إلى مرحلة حضور القلب في تجليات الأفعال الإيمانية؟

---

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب من أذى المسلمين، حديث 8.

الدرس الثلاثون

التقوى

عن الإمام الصادق عليه السلام:

«كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: نبه بالتفكر قلبك، وجافِ عن الليل جنبك، واتّقِ الله ربك»[1].

معنى التقوى:

التقوى في اللغة من الوقاية. والمقصود منها في الأحاديث «وقاية النفس من عصيان أوامر الله ونواهيه وما يمنع رضاه»، فهي ليست مجرد حفظ النفس عن الأمور التي نعلم أنها معصية، بل هي حفظ النفس حفظاً تاماً عن الوقوع في المحظورات بترك الشبهات.

وقد ورد في الروايات:

«من أخذ بالشبهات وقع في المحرمات وهلك من حيث لا يعلم»[2]، **«فمن رتع حول الحِمى أوشك أن يقع فيه»**[3].

التقوى ومراتب الكمال:

إن التقوى ليست هي مقاماً من مقامات الكمال، وإنما هي وسيلة لبلوغ تلك المقامات، ولا يمكن بلوغ أي مقام بدونها.

فالنفس ما دامت ملوثة بالمحرمات، لا تكون داخلة في الإنسانية ولا سالكة في طريقها.

---

(1) أصول الكافي، المجلد الثاني، كتاب الإيمان والكفر، باب التفكر، حديث 1.

(2) أصول الكافي، المجلد الأول، كتاب فضل العلم، باب اختلاف الحديث، حديث 9.

(3) وسائل الشيعة، المجلد 18، كتاب القضاء، أبواب صفات القاضي، باب وجوب التوقف والاحتياط في القضاء والفتوى، حديث 39.

ومـا دامت تميل إلى الشهوات وتستطيب حلاوتها، لن تصل إلى أول مقامات الكمال الإنساني.

ومـا دام حب الدنيا والتعلق بها في القلب، فـلا يمكن أن يصل إلى مقام المتوسطين والزاهدين.

وما دام حب الذات باقياً في دخيلة نفسه، لن ينال مقام المخلصين والمحبين.

وما دام لم يصل إلى مرحلة «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله فيه ومعه وقبله وبعده» ولا زالت الكثرة الملكية والملكوتية ظاهرة في قلبه، لن يصل إلى مقام المنجذبين، وهكذا إلى المقامات الأعلى والأشمخ...

فتقوى العامة إذاً تكون من المحرمات، وتقوى الخاصة من المشتهيات، وتقوى الزاهدين من حب الدنيا، وتقوى المخلصين من حب الذات، وتقوى المنجذبين من الالتفات لغير الله...

وهذه المراتب لها تفاصيل لن ينال منها أمثالنا سوى الحيرة والضياع في المصطلحات، والبقاء في حجب المفاهيم. فالمهم بالنسبة لنا التركيز على تقوى العامة.

مرض النفس:

إن للنفس الإنسانية صحةً ومرضاً، وعلاجاً ومعالجاً، كما كان للجسد صحته ومرضه، وعلاجه ومعالجه.

إن صحة النفس وسلامتها هي الاعتدال في طريق الإنسانية، ومرضها هو الإعوجاج والإنحراف عن هذه الطريق.

وهذه الأمراض النفسية أشد فتكاً من الأمراض الجسدية آلاف المرات. فإن نهاية ما يمكن أن يصل إليه مرض البدن هو الموت، فإذا مات وفارقت الروح البدن، زالت جميع الأمراض البدنية ولا يبقى أثر للآلام والأسقام.

وأما الأمراض النفسية، فإنه ما إن تفارق الروح البدن حتى تظهر آلامها وأسقامها.

إن هذه الأمراض تحتل روح الإنسان ونفسه في الدنيا، ولكن لا يشعر بها بسبب تعلقه بالدنيا وتوجهه إليها، فإن التعلق بالدنيا هو أشبه بالمخدر الذي يمنع من الشعور بالمرض رغم استفحاله وانتشاره. فعندما يزول ارتباط الروح بدنيا البدن يرجع الشعور ويبدأ الإحساس بالآلام والأسقام.

وهذه الأمراض يمكن أن تكون غير قابلة للشفاء، فتلازم الروح أبداً. وإن كانت قابلة للشفاء، فإن شفاءها سيحتاج لآلاف السنين من العذاب والعناء والإحتراق بالنار، فإن آخر الدواء الكيّ:

﴿يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم﴾[1].

دور التقوى عند العامة:

إن الأنبياء هم بمنزلة الأطباء المشفقين الذين جاؤوا بكل لطف ومحبة لمعالجة المرض بأنواع العلاج المناسب لحالتهم.

والأعمال الروحية القلبية والظاهرية البدنية، هي بمثابة الدواء للمرض.

والتقوى ـ في كل مرتبة من مراتبها ـ هي بمثابةالوقاية من الأمور المضرة التي تفاقم الأمراض. ومن دون الحميّة لا يمكن أن ينفع العلاج.

في الأمراض الجسدية قد يستطيع الدواء والطبيعة التغلب على المرض مع عدم الحمية جزئياً، لأن طبيعة الإنسان تحارب الأمراض الجسمية وتحفظ الصحة وتداوي الأمراض.

لكن في الأمراض النفسية الموضوع يختلف، لأن النفس تتوجه إلى الأمراض النفسية وتستقبلها بدل مواجهتها ومحاربتها، فهي تتوجه نحو الفساد والإنتكاس:

﴿إن النفس لأمارة بالسوء﴾[2].

---

(1) سورة التوبة، آية/35.

(2) سورة يوسف، آية/52.

فمن يتهاون في الحمية تصرعه الأمراض، وتجد ثغرات للنفوذ إليه حتى تقضي على صحته قضاءً تاماً.

إن وسيلة الخلاص من العذاب، والطريق الوحيد إلى المقامات والمدارج الإنسانية والصحة، تنحصر في أمرين:

الأول: الإتيان بما يصلح النفس ويجعلها سليمة. وفعل الواجبات يعتبر من أفضل الأمور المصلحة، ومقدم على كل هدف، وله أكبر الأثر. ولهذا أوجبها الله سبحانه وتعالى.

الثاني: الامتناع عن كل ما يضرها ويؤلمها، و ضرر المحرمات هو أشد الضرر.

أهل السلوك يعتبرون الأمر الثاني (التقوى من المحرمات) مقدم على الأمر الأول، حيث يظهر من الأخبار الإهتمام الخاص بهذا الأمر والتركيز عليه.

فعليك أن تطلب من القادر ذي الجلال، من الله المتعال جل جلاله، مع التضرع والبكاء والإلتماس كي يوفقك في هذه المرحلة ويعينك في الحصول على خصلة التقوى.

واعلم أن بدايات الأمر صعبة وشاقة، ولكن بعد فترة من الاستمرار والمثابرة تتحول المشقة إلى راحة، والعسر إلى يسر، بل تتبدل إلى لذة روحية. لذة لا ترضى باستبدالها بجميع اللذائذ.

التقوى في المراتب الأعلى:

المرتبة الثانية: بعد المواظبة الشديدة والتقوى التامة في المرتبة الأولييمكن ـ إن شاء الله تعالى ـ أن تنتقل من هذا المقام إلى مقام تقوى الخاصة. وهي التقوى التي تتلذذ الروح بها، لذة روحية إذا تذوقتها فلن تقيم وزناً للذات الجسدية الزائلة، بل تنفر منها.

المرتبة الثالثة: وتنظر في باطنك فتجد أن كل لذة من لذات هذا العالم قد أوجدت في النفس أثراً وأبقت في القلوب لطخة سوداء تبعث على شدة الأنس

بهذه الدنيا والتعلق بها. وهذه نفسها هي سبب الإخلاد إلى الأرض، وعند سكرات الموت تتبدل إلى صعوبة ومشقة ومعاناة. فإذا أدرك الإنسان هذا الأمر سقطت لذات العالم من عينه كلياً ونفر من الدنيا وما فيها من مباهج وزخارف. وهذا هو التقدم إلى المقام الثالث من التقوى.

المرتبة الرابعة: بعد المرتبة الثالثة يصبح سبيل السلوك إلى الله سهلاً ميسوراً، وطريق الإنسانية نيّراً واسعاً، وتصبح خطوته شيئاً فشيئاً خطوة الحق، ويتهرب من النفس وآثارها، إذ يجد في ذاته عشقاً للحق، فلا يعود يقنع بوعود الجنة والحور العين والقصور، بل يكون مطلوبه ومقصوده أمراً آخر، وينفر من الأنانية وحب الذات. فيتقي حب الذات ويتقي الأنانية. وهذا أول مراتب هبوب نسيم الولاية، فيصبح موضع عناية ألطاف الله تعالى الخاصة.

أما ما يحدث للسالك بعد ذلك فخارج عن قدرة القلم.

أسئلة الدرس

1 ـ ما المقصود من التقوى وهل هي خاصة بحفظ النفس عن الأمور التي نعلم حرمتها؟

2 ـ ما هو دور التقوى وهل هي مرتبة من مراتب الكمال؟

3 ـ ما الفرق بين الأمراض الجسدية وأمراض النفس من جهة الخطورة والظهور؟

4 ـ هناك طريق واحد للوصول إلى المقامات الإنسانية والصحة، بيّن هذا الطريق.

5 ـ ما الذي يزيد في سكرات الموت وصعوبته؟ اشرح ذلك.

فهرس